نباش الليل

يقول أبو الطيب المتنبي:

أزورُهم وظلامُ الليلِ يشفعُ لِي

وأَنثنِي وبياضُ الصبحِ يغرِي بِي

في قصيدة بديعة له من ضمنها يقول -يخاطب نفسه-:

كَمْ زورةٍ لكَ فِي الأعراب داهِيةٍ

أدهَى وقَدْ رقدُوا مِنْ زورةِ الذيبِ

لأن الذئب يزور سريعاً ويعود سريعاً، يخطف خطفاً.

ibtesama.com

فشبه ظلام الليل بشخص يعاونه ويستره، يقول: فإذا رجعت فضحني ظلام الصباح وأغرى بي حتى يدركوني، يحاولون أن يلحقوا بي، فالظلام يسترني يشفع لي عند محبوبي حين أزوره.

وهذه من أحسن المقابلات في الأدب العربي، وعد هذا البيت من أجمل أبياته على الإطلاق، وهو صاحب فرائد، إذا أراد أن يبدع أبدع، ويتوسط أحياناً، وأحياناً قليلة يسف في أبياته ويضعف شأن العبقريات والأعمال العظيمة التي ينتجها مثل هؤلاء العباقرة، فإن أجل ما ينتجونه هو من جنس العبقرية ومن جنس الإبداع، حتى إن له أبياتاً يقول فيها:

زارنا في الظلام يطلب ستراً ... فافتضحنا بنوره في الظلام

ورد عليه ابن المحصد فقال:

فالتجأنا إلى خيامٍ محبٍّ ... ألجأتنا من أعينِ اللوَّامِ

فالقصد أنه صاحب إبداع في الزيارات وفي الهجر وفي المحبة ونحو ذلك؛ لأنه مقتدر على الكلمة، مقتدر على الكلام، حتى إنه في الزيارة يقول عن الحمى، أتته الحمى وهو في مصر، ذهب إلى كافور، فأطلق لنا القصيدة البديعة قصيدة الحمى، وسبحان الله! ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء:١٩] رب ضارة نافعة، فلولا أن قدر الله عليه هذه الحمى لما أخرج لنا ذلك الإبداع البياني الخلاب الجذاب الذي قاله في قصيدة الحمى، يقول:

ملومُكما يجلُّ عَنِ المَلامِ ... ووقعُ كلامِكم فوقَ الكلامِ

إلى أن يقول:

وزائرتي كأنَّ بِهَا حَياءً ... فليسَ تزورُ إلاَّ في الظلاَّمِ

الغالب في الحمى أنها لا تأتي إلا في الليل.

بذلتُ لَها المطارفَ والحشَايا ... فعافَتْها وباتَتْ فِي عِظَامِي

أبنتَ الدهرِ عندِي كلُّ بنتٍ ... فكيفَ وصلْتِ أنتِ منَ الزحامِ

يقول: عندي مصائب وعندي أزمات ومشكلات، فكيف وصلت من هذه المصائب حتى وصلت إلى جسمي، لأن حولي أزمات في جسمي، وحولي مشكلات وكربات، فكيف استطعت أن تنفذي من هذه المشكلة حتى وصلت إلي، ومن ضمن الأبيات الجميلة في هذه القصيدة:

وآنفُ مِنْ أخِي لأبِي وأمِّي ... إذا مَا لَمْ أجِدْه مِنَ الكِرَامِ

يقول: أغضب عليه وتأخذني غيرة إذا لم أجده كريماً شهماً، ولو كان أخي لأبي وأمي، لا أرضاه إذا لم يكن عنده من المكارم.

ولمَّا صارَ ودُّ الناسِ خِبًّا ... جزيتُ علَى ابتسامٍ بابتِسَامِ

يعني: الخداع والمكر والمجاملة، وليس حقيقياً، وليس نابعاً من القلب.

رددت البسمة مثلها، كلها مجاملات، وضحكت لمن ضحك لي، ومزحت لمن مزح لي، مثل تصرفاتهم هم.

وصرتُ أشكُّ فيمَنْ أصطفِيه ... لعلمِي أنَّه بعضُ الأنَامِ

يقول: كل واحد أختاره للصداقة أشك فيه؛ لأنه من جنس الناس، سوف يعود لطبيعة الناس، سوف تأتيه طبائع الناس من الغدر والختل والمراوغة وعدم الوفاء؛ لأنه طبع في الناس، لكن الإنسان لا يعرف عيب نفسه.

ثم جاء بالبيت الفريد الذاهب الشارد في الحكمة، حتى إني قرأت في الأدب الفرنسي أن بنبيدو الرئيس بعد فلرسكارد ديستان أمر أن يترجم هذا البيت ويكتب على الدبابات الفرنسية:

ولم أرَ في عُيُوبِ الناسِ عيبًا كنقصِ القادرينَ علَى التَّمَامِ

أكبر عيب أن تستطيع أن تكون وافياً وناجحاً ثم تنقص، تستطيع أن تكون مبدعاً فلا تفعل، عندك قدرات عندك مواهب ولا تستغلها فهذا عيب كبير، ما دمت لا تستوفي طاقتك ولا تدفع بقوتك وجهدك لتكون ناجحاً، فتنقص عن هذا فهذا عيب كبير.

فذكرني بهذه الزيارة بالشهرزوري وله قصيدة بديعة في الزيارة، حتى يرى علي الطنطاوي أنها أجمل قصائد الزيارات والبدائع، حتى ذكرها ابن خلكان في وفيات الأعيان، يقول وهو يتكلم عن زيارة الأحباب في الظلام:

لمعَتْ نارُهم وقَدْ عسعسَ اللي ـلُ ومَلَّ الحادِي وحارُ الدليلُ

يقول: الذي يحدو الإبل تقطع وتعب، والدليل ضيعنا في الصحراء، حتى لمعت نارهم ورأينا نارهم وقد كنا شارفنا على الموت.

فتأملتُها وفكري منَ البيـ ـنِ عليلٌ وطرفُ عيني كَليلُ
وفؤادِي ذاك الفؤادُ المُعَنَّى وغرامِي ذاكَ الغرامُ الدَّخيلُ

فهذا من أجمل ما قيل، والشهرزوري هذا كان ذا علم وفقه وشعر. يقول أحد الشعراء:

وكنَّا قاصِدينَ إلَى المُحَيَّا إلَى بلدِ المعنَّى الشَّهرزورِي
وعدتِ أنْ تزورِي كلَّ شهرٍ فهذَا قَدْ تقضَّى الشهرُزُورِي

الشهرزوري الأول هو العالم الفقيه القاضي. أما الثاني: فيعني: تقضى الشهر وزال الشهر، فزوري، وهذا هو الجناس، وهو مثل الشقر في الجنوب؛ الكلمة واحدة والمعنى مختلف.

وعلي بن جبلة العكوك هذا شاعر يستولي على القافية، يقول عندما زاره حبيب في الليل:

بأبي من زارني مكتتماً ... حذراً من كل واشٍ جزعا

يقول: جاء يزورنا خائفاً من اللوام والعذال والجيران.

يقرعُ السنَّ على تلك الخطَا ... ثمَّ ما سلَّمَ حتَّى ودَّعا

يقول: لم يمكث طويلاً عندنا. فما لبث أن ودعنا.

وهو صاحب البدائع، وقد قتله شعره هذا، فهو من الشعراء الذين ذكرتهم في قصائد قتلت أصحابها، علي بن جبلة؛ لأنه مدح أبا دلف الأمير بقصيدة لم يقل مثلها، التي يقول فيها:

ذَادَ وِرْدُ الْغَيِّ عَنْ صَدَرِ ... فَارْعَوَى والْغَيّ مِنْ وَطَرِه

دَعْ جِدَا قَحْطَانَ أَوْ مُضَرِ ... فِي يَمَانِيهِ وَفِي مُضَرِه

وَامْتَدِحْ مِنْ وَائِلٍ رَجُلاً ... حجرُ الأيَّامِ فِي حُجَرِه

الْمَنَايَا فِي شَبَا يَدِهِ ... وَالْعَطَايَا فِي شَبَا ظُفُرِهْ

إِنَّمَا الدُّنْيَا أَبُو دُلَفٍ ... بَيْنَ بَادِيه وَمُحْتَضَرِهْ

فَإِذَا وَلَّى أَبُو دُلَفٍ ... وَلَّتِ الدُّنْيَا عَلَى أَثَرِهْ

كُلُّ مَنْ فِي الأَرْضِ مِنْ عَرَبٍ ... بَيْنَ بَادِيهِ إِلَى حَضَرِهْ

مُسْتَعِيرٌ مِنْكَ مَكْرُمَةً ... يَكْتَسِيهَا يَوْمَ مُفْتَخَرِهْ

يقول: كل العرب يكتسون المفاخر منك، كل العرب كباراً وصغاراً لا يأخذون المجد إلا منك أنت، فهو الأمير، وكان الخليفة المأمون، فمعنى ذلك أن المأمون يدخل في هذا، فغضب المأمون واستدعاه وأتى بالناس وحكم عليه بالإعدام، فقتله بسبب هذا البيت.

لكـن المأمون طبعاً أمام الـرأي العام لا يظهر أنه قتله من أجل هذه الأبيات، قال: ابحثوا عن أبيات له في المعتقد؛ لكي نقول للناس وللأمة:

أنـتَ الـذي تـنـزلُ الأيـامُ منزلَها ... وتنقلُ الدهرَ مِنْ حالٍ إلَى حالِ

ومـا كـتـبْـتَ بـأقـلامٍ مـرتـلـةٍ ... إلا قـضـيـتَ بـأرزاقٍ وآجـالِ

قدح في الشريعة، وقد أخطأ في هذا وغلط، وأعوذ بالله، أتى بكلام يحاسبه عليه الله، فضرب رأسه على هذا.

ونعـود إلى الشاهد وهو الزيارة، أبو نواس ذهـب إلى الخصيب وهو أمير في مصر من قبل هارون الرشيد، فانطلق أبو نواس وقصده الجائزة، يقول بعد أن بدأ يتكلم عن فراق زوجته في العراق:

تقولُ التي مِنْ بيتِها خَفَّ مركبي: ... رحيلُكَ فِي هذي الفلاةِ عسيرُ

دعينِي أسلّ الهمَّ عنْكِ بسفرةٍ ... إلَى بلدٍ فيها الخصيبُ أميرُ

إذَا لَمْ تزرْ أرضَ الخصيبِ ركابُنا ... فـأيُّ ديـارٍ بـعـدَهـنّ تـزورُ

فتًى يشتري حسن الثناءِ بمالِه ... ويـعـلـمُ أنَّ الـدائـراتِ تـدورُ

فـإنْ أنـتَ أعطيتَ الثناءَ فأهلُه ... وإلا فـإنّـي عـاذرٌ وشـكـورُ

وهي من أحسن الأبيات، وقصدي هنا منها الزيارة.

وقد كان جبريل يزور رسول الله ﷺ، وفي الصحيحين يقول ﷺ: «**ألا تزورنا يا جبريل، أكثر مما تزورنا؟!**» قال: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم:٦٤] يعني: نزولـه بأمر من الله وبحكمة منه سبحانه وتعالى، فهو عبد مأمور، ينزل متى كتب الله سبحانـه وتعالـى نزوله، حتى إن الصحابة يعيشـون الذكريات في زيارة سيد الخلـق ﷺ لهم، فكان عليـه الصلاة والسلام يزور أصحابه، يقول أبو ذر: «**زارني**

رسول الله ﷺ مرة فما وجدني في بيتي، فدخلت وهو ﷺ على سريري...» انظر إلى معلم الخير ﷺ سيد البشر، يزور أحد أصحابه، وتفاجأ وإذا بسيد البشر ﷺ على سريرك وفي بيتك! قال: «**فلما رآني التزمني فكانت أحسن..**» أي: كانت أحسن من الأولى، كان في الغالب أن النبي ﷺ يصافحه، لكن لما تأخر عليه التزمه، فكانت أحسن ما يكون.

وزار عليه الصلاة والسلام أبي بن كعب بعدما أظلم الليل، أمره الله ﷻ أن يذهب إلى أبي بن كعب سيد القراء من الأنصار، هو سيد القراء في التلاوة على الإطلاق، أبي المنذر، حتى إنه ﷺ سأله قال: «**يا أبا المنذر، أي آية في كتاب الله أعظم؟ قال: الله ورسوله أعلم. فأعاد السؤال، فقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾** [البقرة:٢٥٥] **فضرب ﷺ على صدره وقال: ليهنك العلم أبا المنذر**»، فزاره النبي ﷺ وطرق الباب فخرج، فلما رأى النبي ﷺ حياه واستقبله، جلس أكرم ضيف في العالم، قال: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك سورة البينة. قال: وسماني في الملأ الأعلى؟! قال: نعم سماك. فبكى أبيّ، بكى من هذا الفرح، هذا العبد الصالح يسميه ربه سبحانه وتعالى؛ إكراماً له في الملأ الأعلى عند الملائكة! ويأمر رسول الله ﷺ أن يذهب ويقرأ عليه سورة البينة، فيكون هو سيد القراء رضي الله عنه وأرضاه. فهذه من الزيارات.

ويقول أنس: «**زارنا رسول الله ﷺ في بيتنا، وعندي أخ اسمه أبو عمير، وعنده طائر اسمه النغر، فمات النغر هذا فحزن أبو عمير، فقال النبي ﷺ: يا أبا عمير، ما فعل النغير**» والحديث في البخاري، يداعبه ويؤانسه عليه الصلاة والسلام، ويعيش قضيته، كأن القضية تخص الرسول ﷺ، وهو مشغول بإصلاح العالم ﷺ، قال: «**يا أبا عمير، ما فعل النغير**».

حتى يقول الملاحدة: إن أهل السنة والمحدثين يروون أحاديث لا معنى لها مثل: «**يا أبا عمير، ما فعل النغير**» وهي في البخاري، فذكر الشافعي ما يقارب ستين فائدة من هذا الحديث.

فقصدي أنه ﷺ كان يزور أصحابه، وصلى بهم ﷺ ومع أنس عجوز، قال: «**فصففت أنا والغلام في الصف الأول خلف رسول الله ﷺ والعجوز من ورائنا**».

وكان الشافعي يزور الإمام أحمد، والشافعي أكبر سناً من الإمام أحمد، فقال له بعض أصحابه: يا أبا عبد الله، كيف تزور الإمام أحمد وهو أصغر منك سناً وأنت أجل وأكبر؟ فقال:

قالُوا: يزورُك أحمدٌ وتزورُه ... قلتُ: الفضائلُ لا تغادرُ منزلَه

إنْ زارني ففضلِه أو زرتُه ... ففضلِه فالفضلُ في الحالينِ لَه

وهذا من تواضع الشافعي غفر الله له، وإلا فمنزلته عالية، وأحمد يعرف من هو الشافعي ويقدره، ويدعو له في السحر، حتى يقول أحمد رحمه الله لابن الشافعي: أبوك من السبعة الذين أدعو الله لهم في كل سحر.

فهذا يحترم وهذا يحب وهذا يتولى. حتى كتب الشافعي لأحمد بن حنبل مقطوعة يقول فيها:

أحبُّ الصالحينَ ولستُ منهُمْ ... لعلِّي أنْ أنالَ بهِمْ شَفَاعَةْ

وأكرهُ مَنْ تجارتُه المعاصِي ... ولو كنَّا سواءً في البِضَاعَةْ

تعمَّدْني بنصحِك في انفرادٍ ... وجنِّبني النصيحةَ في الجماعةْ

فإنَّ النصحَ بينَ الناسِ نوعٌ ... من التوبيخ لا أرضى استماعهْ

فإنْ خالفْتَني وعصيتَ أمري ... فلا تجزَعْ إذا لَمْ تُعْطَ طاعةْ

فرد عليه أحمد بأبيات منها:

تحبُّ الصالحينَ وأنتَ منهُمْ ومنكُمْ قدْ تناولْنَا الشفاعَةْ

فإنه من بيت الرسول عليه الصلاة والسلام، قال: الشفاعة تخرج من بيتكم والعلم النافع والنور والهداية، ويجعلون السلام ينوب عن نصف الزيارة، حتى يقول أحدهم:

جدْ لنا بالسَّلامِ إنْ لَمْ تزرْنا إنَّ بذلَ السلامِ نصفُ الزِّيارَةْ

وفي حديث حسّنه بعض أهل العلم، وذكره الألباني في الجامع الصحيح: «زر غباً تزدد حباً» يعني: قلل الزيارة يزدد حبك عند الناس؛ لأن من يكثر الترداد كما يقول ابن دريد يواجَه بالملل، مثلما يقول العامة: خفف درجك يحلُ هرجك.

فأنت إذا أكثرت من الزيارة على الناس ملّوك، فالواجب أن تقتصد في ذلك وأن تكون في أوقات محددة برتابة، «زر غباً تزد حباً» على أن بعض المحدثين يجعله موقوفاً على بعض السلف، وبعضهم يحسنه.

ولأحدهم قول عندما لم يستطع أن يزور بعض محبيه، قال:

في حالةِ البعدِ نفسي كنتُ أرسلُها تقبّلُ الأرضَ عنكُمْ وهيَ رائدتي

يقول: أنا لم أستطع أن آتي بجسمي فأرسلت نفسي لكم، وهذا من مبالغات الشعراء. ثم زار فيما بعد فقال:

وهذهِ دولةُ الإصباحِ قَدْ حضرَتْ فامدُدْ يمينَك؛ كَي تحظَى بهاشفتِي

يقول: أريد أن أقبل يمينك بشفتي، وعلى ذكر ذلك يقول عمارة اليمني الشاعر المشهور، للمعز الفاطمي عندما ذهب إليه من مكة من الحرم، وقد كان المعز الفاطمي يحكم مصر، فلما وصل إلى هناك قال:

فهل درَى البيتُ أنّي بعدَ فرقتِهِ   ما سِرْتُ مِنْ حرمٍ إلا إلَى حرمِ

وهذه من المبالغات، ولما خرج من عنده قبّل يده وقال:

وإذَا لثمتُ يمينَه وخرجتُ مِنْ   أبوابِه لثَمَ المُلُوكُ يمينِي

يقول: لأني قبلت يده يأتيني الملوك يلثمون يميني. وهذه مبالغات على جمال الشاعرية عنده.

وعلى ذكر الزيارة يقول أبو العلاء المعري وقد ذهب إلى الشريف المرتضى وهو من المعجبين بأبي الطيب المتنبي، فذهب يزور الشريف المرتضى في العراق قال:

وردْنَا ماءَ دِجْلةَ خيرَ ماءٍ   وزرْنَا أشرفَ الشّجرِ النّخيلِ

يقول: أنت أيها الشريف المرتضى، شريف في الناس مقدم فيهم مثلما أن النخل يشرف على سائر الشجر، ولهذا يذكر السقاف صاحب العود الهندي على أبيات الكندي يقصد المتنبي، وهو من أجمل كتب الأدب على الإطلاق، قال مقطوعة في الشريف المرتضى، والشريف الرضي غير الشريف المرتضى، أو جده علي بن موسى الرضا الذي كان ولي العهد في عهد المأمون، المأمون كان ذا ميل لأهل البيت، فجعل ولي العهد منهم ولم يجعله من بني العباس بعدما اختلف مع أخيه الأمين، فأتى أبو نواس ومدح الوزراء والأمراء ونسي ولي العهد الذي هو علي بن موسى الرضا، من بيت النبوة على نبينا الصلاة والسلام، قال له الناس: تترك يا أبا نواس، علي بن موسى الرضا وهو من بيت النبوة وتمدح فلاناً التاجر وفلاناً البقال وفلاناً الحطاب..! فأتى يعتذر وذهب إلى علي بن موسى الرضا يعتذر لنفسه، قال:

قِيلَ لِي أنتَ واحدُ الناسِ في   كلٌ معنًى مِنَ الكلامِ بدَيه

لكَ في جوهرِ الكلامِ بديعٌ ... يثمرُ الدرَّ في يدَي مجتنيهِ
فعلامَ تركتَ مدحَ ابنِ موسَى ... بالخصالِ التي تجمّعْنَ فيهِ
قلت: كيفَ أهتدي لمدحِ إمامٍ ... كانَ جبريلُ صاحباً لأبيهِ

قال السقاف بعد هذه القصيدة: يكسر القلم من جودتها ويحرق القرطاس، ليس بعدها شيء، فهو أنصفه ومدحه مدحاً راقياً.

وأبو العلاء عندما صار عند الشريف المرتضى، والشريف المرتضى يكره المتنبي حسداً منه، فلما وصل أبو العلاء في البلاط، وكان الشريف المرتضى يعرف أن أبا العلاء يموت حباً في المتنبي، قال: شيخك الضال الذي تستشهد به... وهو يقصد المتنبي شيخه وأستاذه.

قال: لا تسبه أيها الأمير، لو لم يكن له إلا قصيدته الرائعة التي يقول فيها:

لكِ يا منازلُ في القُلوبِ منازلُ ... أقفرتِ أنتِ وهُنَّ منكِ أواهلُ

قال الشريف: اطردوه من المجلس، فلما أخرجوه قالوا: يا أيها الأمير، ما قال بأساً، إنما قال قصيدة فقط، فقال الأمير: لا! هو قصده آخر القصيدة:

وإذَا أتتْكَ مذمّتِي مِنْ ناقصٍ ... فهيَ الشهادةُ لِي بأنّيَ كاملُ

فانظر إلى بداهة وقريحته كيف فهم! وإلا فللمتنبي أجمل من هذه القصيدة، لكن أبا العلاء المعري يريد نفس هذا البيت، وهذا ذكاء يوجد عند الشعراء يدركه بالذائقة بعض الأذكياء، مثل أبي جعفر المنصور الذي اعتمر، ثم ذهب إلى مدينة الرسول ﷺ، قال: ابحثوا لي عن شيخ يدلني على الديار وعلى القرى وعلى بيوت الصحابة وبيوت المهاجرين والأنصار.. فوجدوا شيخاً كبيراً، فقال للشيخ: فقط البيت؛ فأتى الشيخ الكبير: هذا بيت سعد بن معاذ، هذا بيت زيد بن ثابت.. هذا

بيت أبي بن كعب.. هذا بيت مصعب.. هذا بيت عمر.. مضت تلك الليلة ولم يعطوه الأجرة، نسوا، وفي اليوم الثاني أتى الشيخ يعرض بشعر؛ لكي يفهم الخليفة، فلما وصلوا إلى بيت شاعر قال: هذا بيت الأحوص يا أمير المؤمنين الذي يقول:

يـا بـيـتَ عـاتـكـةَ الـتـي أتـغـزّلُ ... حَـذَرَ الـعِـدا وبـه الـفـؤادُ مـوكَّلُ

إنّـي لأمـنـحُك الـصـدودَ وإنّـنـي ... -قسماً إليكِ- معَ الصدودِ لأمْيَلُ

فسكت أبو جعفر وعاد إلى الوزراء في المجلس، فقال: أكملوا لي القصيدة؛ لأن هـذا الشيخ لم يأتِ بهذه الأبيات إلا لغرض، وأنا قد أخبرته ألا يذكر إلا اسم البيت فقط، لماذا يأتي ببيت؟

فأكملوا القصيدة، وإذا في آخرها:

وأراكَ تفعلُ ما تقولُ وبعضُهم ... مـذقُ الـكـلامِ يـقـولُ مـا لا يفعلُ

قال: أما أعطيتمـوه الأجرة؟ قالوا: لا، قال: إذاً هو يقصد هذا، أعطوه حقه، فهو استشهد بشعر الأحوص في مدحه رجلاً.

كلامه معسول لكنه لا ينفذ، يقول: أبشروا بما يسركم، أبشروا بالشبب، وليس عنده شبب ولا خير، لا ينفذ شيئاً، فعرف أبو جعفر.

وكان مـن أبخل الناس، اسمه أبـو الدوانيق، أتى بمغنّ في الطريق إلى طريق الحـج قال: أنشد لـي نشيداً، فأنشده يومـاً كاملاً، فأعطاه درهمـاً، قال: سبحان الله! والله إن الوليد بن يزيد أنشدته هذه الأبيات، فأعطاني مئة ألف درهم، وأنت تعطيني درهماً! فقال: رد المال الذي عندك من الوليد؛ لأن الوليد سرقها من بيت مـال المسلمين وأنت سرقتهـا منه، قال الوزراء: فما زلنا به حتى عفا عنه؛ لكي لا يرتد المال الأول الذي أخذه من الوليد بن يزيد.

وزار أحد المحدثين أحد الأمراء، فقال:

مَنْ زارَ بابَك لَمْ تبرحْ جوارِحُه ... تروِي أحاديثَ ما أوليتَ مِنْ مِنَنِ

فالعينُ عنْ قرّة والكفُّ عَنْ صِلَةٍ ... والقلبُ عَنْ جابرٍ والسَّمعُ عَنْ حسنِ

على نظام المحدّثين.. يقول: (**مَنْ زارَ بابَك لم تبرحْ جوارِحُه**): لأن هذا محدّث. (**تروِي أحاديثَ ما أوليتَ مِنْ مِنَنِ**): من خير وعطايا.

(**فالعين عن قرة**) يقال: عين قريرة وقرة عين. وقرة بن شريك هذا محدّث، يقول: نروي عن قرة. (**والكفُّ عَنْ صِلَةٍ**) يقول: توصل صلة وتعطينا هدايا. وصلة هو صلة بن أشيم العابد الزاهد.

(**والقلبُ عَنْ جابرٍ**): جابر بن عبد الله رضي الله عنه، يعني أنك تجبر قلوبنا. (**والسمعُ عَنْ حسنِ**): من أحسن ما نسمع، وهو يقصد الحسن البصري المحدث العالم الكبير.

وزار أيضاً رجلٌ الأمير تميم، فقال فيه:

أصحُّ وأعلَى ما سمعْناه مِنْ ندًى ... مِنَ الأثرِ المعروفِ منذُ قديمِ

أحاديثَ ترويها السيولُ عَنِ الحَيَا ... عنِ الغيثِ عَنْ كفِّ الأميرِ تميمِ

انظر إلى السرد: عن.. عن.. عن.. لأن المحدّثين يقولون: عن فلان.. عن فلان.. عن مالك عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ.

وعند اللقاء يستحسن أن تنشد شعراً، حتى إذا لقيت إنساناً أن تقول له بعض الأبيات إذا كان ذا صدارة ووجاهة، فهذا من أحسن ما يقدم، كما قال عمر: «نعم الرجل يقدم بين يدي حاجته شيئاً من الشعر» وقد كان السلف يفعلون ذلك.

التقى الزمخشري العلامة المعتزلي الكبير صاحب الكشاف وابن الشجري النحوي اللغوي، ما كان يعرف أحدهما الآخر، قال ابن الشجري: أنت الزمخشري؟ قال: نعم، قال: لا إله إلا الله!

كانَتْ محادثةُ الرُّكبانِ تخبرُنا ... عَنْ جعفرِ بْنِ فلاحٍ أروعَ الخبرِ

حتَّى التقَيْنا فلاَ واللهِ ما سمعَتْ ... أُذني بأحسنَ ممَّا قَدْ رأى بصري

قال الزمخشري: أنت ابن الشجري؟ قال: نعم. قال: لا إله إلا الله، أنت كما قال أبو الطيب المتنبي:

وأستعظمُ الأخبارَ قبلَ لقائِه ... فلمَّا التقَينا صغَّرَ الخُبرُ الخَبر

نسأل الله أن يجعلنا والمسلمين متحابين فيما بينهم، ويتزاورون في الله.

الرأي قبل الشجاعة

يقول أبو الطيب المتنبي:

الرأيُ قبلَ شجاعةِ الشُّجعانِ

هـوَ أولٌ وهـيَ المحلُّ الثَّانِي

فإذا هُمَا اجتمعَا لنفسٍ حرّةٍ

بلغَا منَ العلياءِ أيَّ مكانِ

ولربَّما طعنَ الفتىَ أقرانَـه

بالرأيِ قبلَ تطاعُنِ الأقرانِ

هـذه القصيدة بديعـة؛ لأنه بدأهـا بحكمة، وهـذه الحكمة موقع عليها مـن العلماء والحكماء، فإنـه يقـول: إن الرأي يقدم علـى الشجاعة فإنك

تـدرك بالـرأي السديد ما لا تـدرك بالشجاعة؛ لأن الشجاعـة يصحبها التهور أو الطيش أو نحو ذلك أحيانـاً، أما الرأي السديد فإنه تأتـي بعده الأمور على خير، فقدم صاحـب الرأي على صاحب الشجاعة. لكن إن اجتمع الرأي والشجاعة تكن للنفس مروءة وشهامة وبلغت من العلياء مبلغاً عظيماً.

وهذا مما يشكر له، هذا الإبداع وهذه الحكمة التي قالها، والحقيقة أن الرأي موهبة من الله سبحانه وتعالى يهبه من يشاء، فتجد رأي بعض الناس يعادل ألفاً، وأسـدُّ الناس وأكثرهـم رأياً وأغزرهم حلمـاً وحكمة هم الأنبيـاء عليهم الصلاة والسـلام، ومـع ذلك كانوا يشاورون، فكان سيد الخلـق ﷺ يشاور أصحابه، ففي بدر لما نزل ﷺ ذاك المنزل قال له الحباب بن المنذر الأنصاري: «أهو يا رسول الله، رأي أراك الله إيـاه أم هـو الـرأي والحـرب والمكيدة؟ قـال ﷺ: هو الرأي والحـرب والمكيدة» أي: يقبـل الشورى، فأشار على رسـول الله ﷺ أن ينزل عند آخر الآبار؛ حتى يجعل الماء خلف ظهره ويجعل حصاراً عن الماء على المشركين وحصـل ذلك؛ فالرسول ﷺ شاورهـم؛ لأن الله ﷻ يقول: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران:١٥٩] فـلا يستغني الإنسان مهما كان له مـن الرأي السديد ومن الخبرة والتجربـة أن يشـاور الرجال؛ فإن منهـم أهل الآراء، وما أحسـن من تلقيح عقول الرجال بالمشورة؟

يقول أبو تمام:

ولَو كانتِ الأرزاقُ تأتِي علَى الحِجَا ... هلكنَ إذاً مِنْ جهلِهِنّ البهائِمُ

إن ميزة الرجال والناس هي العقول، وهذا هو الصحيح، وميزها الله سبحانه وتعالـى عن البهائـم، فلو كان لا يرزق إلا عاقل، فلن يـرزق الله البهائم، لكن الله رزقها سبحانه وتعالى، يعطي العاقل وغير العاقل، ويقول أبو تمام يعزي:

أتصبرُ للبلوَى رجـاءَ وحسبةً ... فتؤجرُ أم تسلُو سلوَّ البهائمِ

يقول: إنك إذا لم تصبر وقت الصدمة ووقت الحادثة حتى تؤجر فسوف يمر بك وقت تسلو مثلما تسلو البهائم؛ فإنك تجد بعض الناس لا يصبر فيفوته الأجر وبعد أوقات وسنوات وأعوام تجده يسلو مثلما تسلو البهائم.

فالرأي هذا موهبة، وقد تميز به أناس في التاريخ العربي، حتى وصل إلى درجة الدهاء، وإذا ما كان هناك سداد ومراقبة الضمير وخوف من الله صار خبثاً وصار مكراً، والإسلام ينهى عن المكر وينهى عن الخبث.

ومن دهاة العرب الذين ذكرهم التاريخ: عمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان وزياد بن أبيه والمغيرة بن شعبة.

قالوا: المغيرة بن شعبة لكبارها، وعمرو بن العاص لسريعها (للمفاجآت)، وزياد بن أبيه للكبار والصغار، ومعاوية للأناة، والعجيب أن الأربعة اجتمعوا مع معاوية، فلذلك صراحة كانوا جبهة من الدهاء ومن الرأي وذهبوا إلى ربهم سبحانه وتعالى.

حتى إن عمرو بن العاص قال لمعاوية: أنا أدهى أم أنت؟ قال: ما أدري ولكن ادنُ مني أكلمك- وهما وحدهما- فدنا منه، فقال له معاوية: أمعنا أحد حتى تقرب مني؟ وهذا من باب المزاح الأدبي الذي يذكر عنهما.

ومن دهاة العرب وأهل الحلم والرأي فيهم قيس بن عاصم المنقري وهو سيد بني تميم قبل الأحنف بن قيس، حتى قال فيه الشاعر:

عليكَ سلامُ اللهِ قيسَ بنَ عاصمٍ ... ورحمتُه ما شاءَ أن يترحَّما

تحيةَ مَنْ أوليتَه منكَ نعمةً ... إذا زارَ عَنْ شططٍ بلادَك سَلَّما

وما كانَ قيسٌ هلكُه هلكَ واحدٍ ... ولكنَّه بنيانُ قومٍ تهدَّما

فصار في الحلم والرأي مضرب المثل، والأحنف تولى مشيخة بني تميم وقيادتهم بعد قيس بن عاصم وهو من عشيرته.

وقد وفد قيس بن عاصم على الرسول عليه الصلاة والسلام، ويروى في بعض كتب السير: أنه ﷺ قال له: «يا قيس، إن معك قريناً تدفن معه وأنت ميت، ويدفن معك وهو حي وهو عملك، يا قيس، إن مع الغنى فقراً، وإن مع العزة ذلة، وإن مع القوة ضعفاً» أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

وعند أبي داود: أنه لما أسلم أمره ﷺ أن يغتسل، في بعض الألفاظ: «**ألقِ عنك شعر الكفر واغتسل**» يعني: احلق رأسك واغتسل، فغسل رأسه واغتسل، ويستدل العلماء بوجوب الغسل إذا أسلم الإنسان؛ يغتسل لإسلامه بحديث قيس ابن عاصم عند أبي داود هذا.

أما الأحنف فقيل له: من أين تعلمت الحلم؟ قال: تعلمت الحلم من قيس بن عاصم، قالوا: كيف؟ قال: كنا جلوساً معه في مجلس مرة وهو محتبٍ- والاحتباء أن يلف عليه قماشاً أو كساء أو نحو ذلك ويجلس رافعاً رجليه إلى ركبتيه- قال: وكان يقص علينا، فدخل أحد أبنائه، وقال: يا أبتاه- يخاطب قيس بن عاصم- فلان قتل أخي، قال: فوالله ما أنهى قصته ولا حل حبوته، فلما انتهى قال للابن هذا بحلم وبسعة وبعقل: اذهبوا إلى أخيك فغسلوه وكفنوه ثم ائتوني به أصلٌ عليه، ونعطِ أمه- يعني: زوجته- مئة ناقة دية له، فدفع الدية، وعفا عن القاتل، وأمر بغسل هذا الابن. فتعلم الأحنف، يقول: تعلمت الحلم من هذه المدرسة التي لا يوجد مثلها، فهو حليم العرب، هذا قيس بن عاصم إذا ضرب الحلم فهو حليم على الإطلاق.

ثم جاء الأحنف بن قيس من دهاة العرب ومن علمائهم ومن أهل الرأي فيهم، حتى ذكره ابن تيمية في كتاب الفرقان يقول: إنه كان يصلي في الليل وكان يلذع

أصابعه بالنار، ويقول: ذق قبل أن تذوق، حتى يخوف نفسه من نار جهنم ويبكي، غفر الله له.

وممن اشتهر بالدهاء وجودة الرأي والعقل ابن عباس، عبد الله بن عباس الحافظ العالم حبر الأمة وبحرها وترجمان القرآن، حتى يقول لعلي بن أبي طالب: من جعلت مقابلاً ونديداً لعمرو بن العاص؟ لأن معاوية اختار عمرو بن العاص في يوم الحكمين؟ قال: جعلت أبا موسى الأشعري، قال: لا يا أمير المؤمنين، إن عمراً رجل قارح باز مرس -يعني: داهية- فاقرنّي به، اجعلني قريناً له، والله ما يفتح باباً إلا أغلقته، ولا يغلق باباً إلا افتحته، فعلم أنه من أدهى الناس، مع العلم الذي آتاه سبحانه وتعالى ومع الفصاحة والنباهة، بل إن الموسوعية العلمية تختار ابن عباس لهذا الأمر، حتى إنه لما عمي رضي الله عنه كان يعزيه بعض الناس قال:

إِنْ يأخذِ اللهُ مِنْ عينيّ نورَهما ... ففي فؤادي وقلبي مِنْهما نورُ
عقلِي ذكيٌ وقلبِي غيرُ ذِي عِوَجٍ ... وفِي فمِي صارمٌ كالسيفِ مشهورُ

ومن الدهاة وأهل الذكاء: إياس بن معاوية القاضي، وهو مضرب المثل، وفي سيرته يقول: إني أذكر اليوم الذي ولدت فيه (يوم خرج من بطن أمه). والله أعلم، ويأتي بأخبار عجيبة، وفي القضاء له ذهن وقاد، فأبو تمام مدح المعتصم، فقال:

إقدامُ عمرٍو فِي سماحةِ حاتمٍ ... فِي حلمِ أحنفَ فِي ذكاءِ إياسِ

يقصد إياس القاضي.

وهو في الذكاء جد عجيب، أتت إليه مجموعة من النساء فقال: إحداهن بكر، والثانية: حامل وحامل بولد، والثالثة ثيب، ودخل عليه رجل فقال: هذا رضع مع كلبة، قالوا: كيف عرفت؟ قال: البكر فيها حياء ولا تمد نظرها فعرفت أنها بكر، والثيب: رأيتها جريئة وتتكلم، وهذه الحامل بولد رأيت في صوتها ضعفاً، والمرأة

إذا حملت بغلام ضعف صوتها، فبحثوا فوجدوها كما قال، وأما هذا فإني رأيته يرتعد وفي كلامه هوج فأظنه رضع من كلبة، فسألوا أمه، فقالت: ذهبت للبادية عند فلانة فانقطع لبنها فوجدوا كلبة وأشرف على الموت فحلبوا له من لبنها فشرب، فأتته اللوثة والهوج من هذا، فهو أول العجب في هذا.

واختصم مرة عنده رجلان، فقال أحدهما: لي مال على فلان، قال ذاك: ما له علي شيء، قال إياس: أين أعطيته المال؟ قال: أعطيته بجانب شجرة كبيرة في الطريق- قريباً من البصرة أو كذا- قال: اذهب إليها لعلك تجد المال قريباً منها والتمس، قال: أيها القاضي، لن أجد، قال: اذهب لعلك تجد المال هناك، فذهب وتغافلوا إياس، وذاك المنكر للمال جالس، وتغافل عنه وأخذ يكتب، ثم رفع طرفه، وقال: أتظن أنه اقترب من الشجرة؟ قال: لا، هي بعيدة، فكتب إقراره وأخذ منه بذلك. وهذا من ذكائه، وله في ذلك قصص عجيبة وغريبة، وهو من سادات القضاء على الإطلاق.

وذكر الإمام أبو الفرج بن الجوزي في الأذكياء وغيره، قال: لما حضرت نزار ابن معد الوفاة، قسم ماله بين بنيه، وهم أربعة: مضر وربيعة وإياد وأنمار، وقال: يا بني، هذه القبة الحمراء وما أشبهها من المال لمضر، وهذا الخباء الأسود وما أشبهه من المال لربيعة، وهذه الخالة وما أشبهها من المال لإياد، وهذا المجلس لأنمار يجلس فيه. ثم قال لهم: إن أشكل عليكم الأمر في ذلك واختلفتم في القسمة، فعليكم بالأفعى بن الأفعى الجرهمي. وإنه لما مات نزار توجهوا إلى الأفعى، وكان ملك نجران، فبينما هم يسيرون إذ رأى مضر كلأً قد رعي، فقال: إن البعير الذي رعى هذا أعور، فقال ربيعة: وهو أزور، وقال إياد: وهو أبز، وقال أنمار: وهو شرود. فلم يسيروا إلا قليلاً حتى لقيهم رجل، فسألهم عن البعير، فقال مضر: أهو أعور؟ قال: نعم، قال ربيعة: أهو أزور؟ قال نعم. قال إياد: أهو أبتر؟ قال: نعم. قال أنمار: أهو شرود؟ قال: نعم، هذه صفة بعيري دلوني عليه، فحلفوا

لـه إنهم ما رأوه، فلزمهـم وقال: كيف أصدقكم وأنتم تصفون بعيري بصفته؟! ثم سـار معهـم، حتى وصلوا نجران ونزلـوا بالأفعى الجرهمي. فقـال الشيخ صاحب البعير: هؤلاء أصابوا بعيري فإنهم وصفوا لي صفته، ثم قالوا: لم نره أيها الملك، فقال الأفعى: كيف وصفتموه ولم تروه؟ فقال مضر: رأيته رعى جانباً وترك جانباً، فعلمـت أنه أعور. وقال ربيعـة: رأيت إحدى يديه ثابتة الأثـر، فعرفت أنه أفسدها بشـدة وطئـه لازوراره. وقـال إياد: رأيت بعـره مجتمعاً، فعلمت أنـه أبتر، ولو كان ذيالاً لمصع به. وقال أنمار: رأيته رعى الملتف نبته، ثم جاوزه إلى مكان آخر أرق منـه، فعلمت أنه شرود. فقال الأفعى للشيـخ: ليسوا بأصحاب بعيرك، فاطلبه. ثم سألهـم: من هـم؟ فأخبروه، فرحب بهم. ثم قال: أتحتاجـون إلي وأنتم كما أرى؟ فدعـا لهم بطعـام وشراب فأكلوا وشربوا، فقال مضر: لـم أرَ كاليوم خمراً أجود، لـولا أنهـا على مقبرة. وقال ربيعة: لم أرَ كاليوم لحماً أجود لولا أنه ربي بلبن كلبة! وقـال إيـاد: لم أرَ كاليوم رجلاً أثرى منه لولا أنه ليـس بابن أبيه الذي يدعى إليه! وقال أنمار: لم أرَ كاليوم خبزاً أجود لولا أن التي عجنته حائض!

وكان الأفعـى قد وكل بهم من يستمع كلامهـم، فأعلمه بما سمع منهم فطلب صاحـب شرابـه، وقال له: الخمرة التـي جئت بها ما قصتها؟ قـال هي من كرمة غرستهـا على قبـر أبيك، لم يكن عندنا شراب أطيب مـن شرابها. وقال للراعي: اللحـم مـا أمره؟ قال: من لحم شاة أرضعناها بلبن كلبة، لم يكن في الغنم أسمن منها. فدخل داره، وسأل الأمة التي عجنت العجين، فأخبرته أنها حائض. ثم أتى أمـه وسألها عن أبيه؟ فأخبرته أنها كانت تحت ملك لا يولد له، فكرهت أن يذهب الملـك، فأمكنت رجلاً نزل بهم من نفسهـا فوطئها، فأتت به. فعجب من أمرهم، وأرسـل لهم من يسألهم عما قالوا؟ فقال مضر: إنما علمت أنها من كرمة غرست على قبر؛ لأن الخمر إذا شربت أزالت الهم، وهذه بخلاف ذلك؛ لأنا لما شربناها دخل علينا الغم. وقال ربيعة: إنما علمت أن اللحم لحم شاة رضعت من لبن كلبة؛

لأن لحم الضأن وسائر اللحوم، شحمها فوق اللحم إلا الكلاب، فإنها عكس ذلك، فرأيته موافقاً له، فعلمت أنه لحم شاة رضعت من كلبة، فاكتسب اللحم منها هذه الخاصية. وقال إياد: إنما علمت أن الملك ليس بابن أبيه الذي يدعى إليه لأنه صنع لنا طعاماً ولم يأكل معنا، فعرفت ذلك من طباعه؛ لأن أباه لم يكن كذلك. وقال أنمار: إنما علمت أن الخبز عجنته حائض؛ لأن الخبز إذا فت انتفش في الطعام، وهو بخلاف ذلك فعلمت أنه عجين حائض.

فأخبر الرجل الأفعى بذلك، فقال: ما هؤلاء إلا شياطين، ثم أتاهم فقال لهم: قصوا قصتكم، فقصوا عليه ما أوصاهم به أبوهم، وما كان من اختلافهم. فقال: ما أشبه القبة الحمراء من مال فهو لمضر، فصارت له الدنانير والإبل وهي حمر فسميت مضر الحمراء. ثم قال: وما أشبه الخباء الأسود من دابة ومال فهو لربيعة فصارت له الخيل وهي دهم فسميت ربيعة الفرس. ثم قال: وما أشبه الخالة، وكانت شمطاء، من مال، فهو لإياد، فصارت له الماشية البلق من الخيل وغيرها، وقضى لأنمار بالدراهم والأرض. فساروا من عنده على ذلك.

فقصدي أن الرأي والذكاء هذا موهبة؛ حتى يقول المتنبي في القصيدة:

لولا العقولُ لكانَ أدنَى ضيغمٍ أدنَى إلَى شرفٍ مِنَ الإنسانِ

يقول: لو كانت المسألة بغير العقل لكان الأسد أشرف، ومعلوم أن الأسد شجاع ومقدام، لكن لما سلب الله عقله فقد سلب هذا الشرف. الله شرف الإنسان بالعقل، والعقول تختلف، والناس درجات في العقل، فمنهم من يعادل ألفاً كما قال ابن دريد:

والنَّاسُ ألفٌ منْهم كواحدٍ وواحدٌ كالألفِ إنْ أمرٌ عَنَا

ومنهم من لا يساوي شيئاً، ومنهم من سلب العقل أصلاً؛ ولذلك يقول الحكماء: إذا أردت أن تحمد الله دائماً فاحمده على العقل، زر المارستان

(مستشفى المجانين) لتحمد الله على العقل، وزر المستشفى لتحمد ربك على العافية، وزر المقبرة لتحمد ربك على الحياة، وزر السجون لتحمد ربك على الحرية، وزر المسجد كل يوم خمس مرات؛ لتعرف ربك.

هذه زيارات إيمانية، وأنت إذا أردت أن تنظر فانظر كيف انصرف أهل العقول بعقولهم بالمعاصي، مثلاً المخدرات، كيف تجد الإنسان سميعاً بصيراً كان بإمكانه أن يكون نافعاً ورجلاً مصلحاً وحامل مبدأ وصاحب فضيلة ثم يسلب عقله تماماً، وكذلك السكران أو من أصيب بالمعاصي ثم ضعف عقله؛ لأن المعاصي تضعف العقول بإجماع العلماء، بخلاف (أولي الألباب) الذين مدحهم الله سبحانه وتعالى بالفهم عنه وعن رسوله عليه الصلاة والسلام.

فإنما قلت هذا لأدلل لكم أن كلام المتنبي في مكانه، وأنه لا يفضل الشجاع الأهوج على العاقل الرزين صاحب الرأي ولو كان جباناً؛ لأن صاحب الرأي سيحتال لجبنه ويسدد برأيه، أما الشجاع المتهور فإنه أحياناً يخطئ وأحياناً يضر أكثر مما ينفع.

فالمقصود الرأي المسدد لا الرأي الذي فيه مكر؛ لأن بعض الشعراء يمدحون الماكر الذي يمكر بالناس، والخبيث في رأيه الذي يتداهى لأخذ أموالهم ويغلبهم، وهذا في الإسلام محرم، والمطلوب الرأي السديد الذي يوصلك إلى النجاح وإلى الفضيلة وإلى الحق والعدل، لا الرأي الذي يتحول إلى دهاء وإلى خبث وإلى مكر حتى تلدغ به الناس وتحتال عليهم وتسيء إليهم؛ ولذلك يقول عمر رضي الله عنه: لست بالخب ولا الخب يخدعني؛ أي: لست ماكراً أمكر بالناس، وأيضاً لا أرضى أن يمكر بي أحد، وهذا غاية العقل، فإن الإنسان لا يكون ماكراً خبيثاً ولا يرضى أن يضحك عليه الناس ويلعب عليه الناس ويستهزئ به الناس.

وقد يستخدم الرأي في نصرة الإسلام لمن وجهه، حتى لو كان في دهاء، إذ تجوز الخديعة في الحرب بأعداء الله ﷻ، يقول ﷺ: «**الحرب خدعة**»؛ لأنها تقوم

علـى ذلك، ما دام الخصـم يخدع بك ويخطط لك، فخطط أنـت له، الجزاء من جنس العمل: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ ﴾ [الشورى:٤٠] كما يقول نابغة بني جعد:

سقيناهُمُ كأساً سقُونا بمثلِها ولكنَّنا كنَّا علَى الموتِ أصبَرا

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ ﴾ [الأنفال:٦٠] قـوة الرأي.. قوة المكر.. قوة السلاح.. قوة العلم.. قوة الاقتصاد.

ولمـا تألفت الأحزاب ضد الرسول ﷺ والصحابة في معركة الخندق اجتمع المشركـون من قريش وقبائل العرب ومعهـم اليهود، فأتى نعيم بـن مسعود أحد الدهـاة، فأسلم، وقـال للرسول ﷺ: يا رسـول الله، ائذن لـي أن أنقل كلاماً بين اليهود فأفسد بينهم، يعني: يشق عصاهم، بالدهاء.. بالذهن.. بالرأي السديد.. بالمكر؛ لأنهم أعداء لله ﷻ، فيحاربهم بهذا السلاح، فأذن له ﷺ، وهو لما يعلن إسلامه بعد، فذهب إلى قريش واليهود، يضرب ما بينهما ويشتت شملهم، فذهب أولاً إلـى اليهود في المدينة وقريش آتون من مكة يقاتلون، قال: سوف تأتي قريش يقاتلـون محمداً، فإذا إذا انتصرتم أخذوا الغنائم وذهبوا، وإذا غلبتم ذهبوا إلى مكة سالمين غانمين وأنتم سوف يقع فيكم القتل والأسر وسوف يستبد بكم محمد، وأنتم الذين تدور عليكم الدائرة، قالوا: صدقت، قال: أما تعرفونني ناصحاً- وكان لهم صديقاً- قالوا: أنت ناصح لا نتهمك، قال: ألست بصديق لكم وصاحب؟ قالوا: أنـت الصاحـب والصديق، قالوا: فمـا هو الرأي؟ قال: خذوا مـن قريش خمسين رجـلاً رهينة، قولـوا: فإن انتصرنا أطلقناهم، وإن وقعـت علينا الغلبة فأنتم معنا حتـى تنصرونا؛ لأنا نخشـى أن تأتوا معنا فإذا غُلبنـا تركتمونا ورجعتم إلى مكة، وسوف يستولي علينا المسلمون قتلاً وأسراً، قالوا: نِعْم الرأي الذي أشرت به.

ثـم ذهب ومـا درى اليهود، ووصل إلى كفـار قريش، قـال: ألست صديقكم؟ قالوا: بلى، قال: ألست بصاحبكم؟ قالوا: بلى، قال: أتتهمونني؟ قالوا: ما نتهمك- وهـو أسلم بحمد الله- قال: فإن اليهود سيطلبـون منكم ستين أو خمسين رهينة،

وقد اتفقوا مع محمد يسلمونهم هؤلاء الرهائن يقتلهم، فإذا طلبوا منكم فلا تفعلوا- وهو الذي أشار على أولئك- فاجتمع هؤلاء وهؤلاء، قال اليهود: ما نفعل إلا بخمسين من الرهائن والأسارى، فقال كفار قريش: هذا الذي نصحنا نعيم ابن مسعود، قالوا: ما نفعل وأقسموا ما يفعلون، قال اليهود: هذا الذي حذرنا نعيم ابن مسعود، فاختلفوا فتنازعوا فتشتت شملهم، فهزمهم الله سبحانه وتعالى بهذا الرأي المتين، فشكر له ﷺ هذا الرأي وهذا الدهاء الذي يحتاج إليه المسلمون؛ لأن الغبي كما يقول أبو تمام:

ليسَ الغبيُّ بسيدٍ فِي قومِه ... لكنَّ سيدَ قومِه المُتَغابِي

الغبي لا يكون سيداً ولا ماجداً، لكن من يتغابى وهو داهية. فمن التغابي أن تتغافل عن زلات الناس، امحُ الزلة واتركها تمر، مثلما قال حاتم:

وكلمةُ حاسدٍ منْ غيرِ جرمٍ ... سمعتُ فقلْتُ مرّي فانفذيني

وعابُوها عليَّ ولم تعبني ... ولَمْ يندَ لها أبداً جبيني

يقول الإمام أحمد: التغافل تسعة أعشار حسن الخلق، تسمع الزلة فقل: لا يقصدنا، وجد له تبريراً، الله أعلم بمراده، لا ترد على كل كلمة وتجازيه على كل سيئة، بل تدفع بالتي هي أحسن، وهذا من جودة الرأي، ومن جودة الرأي الذكاء، ومما نقل عن الشافعي أنه كان آية في الذكاء وجودة الرأي، ومنهم الشعبي العالم الكبير والزهري وغيرهم.

وأبو بكر الباقلاني من العلماء الكبار أرسله الخليفة العباسي إلى ملك الروم، وملك الروم أراد أن يهين أبا بكر الباقلاني، قالوا: هو لا ينحني، وأبو بكر عالم جليل وصاحب شريعة إمام لا ينحني لملك الروم، ومن عادة الوفود إذا أتوا عند ملك الروم أن ينحنوا، وهذا محرم في الشرع، عندنا في الإسلام لا تنحني لأحد

إلا الله، ولا يسجد إلا لله، ولا يركع إلا لله، فقالوا لملك الروم: أبو بكر الباقلاني إذا جاء لن ينحني لك أمام الناس، قال: سوف أجعله ينحني، فأمرهم أن يقصروا في الباب، بحيث يكون الدخول على قدر الراكع، قال: فإذا دخل غض من رأسه وانحنى ودخل إلينا، ثم جمع الوزراء والمستشارين من علماء النصارى عنده، وأُمر أبو بكر الباقلاني أن يدخل عليه، فلما رأى الباب قصيراً عرف المكيدة، فرجع على الخلف ومشى إلى ظهره ورجع يمشي على الوراء إلى الخلف، ثم التفت فجلس عنده، وكان عند ملك الروم راهب، والرهبان عندهم حرام أن يكون لهم أولاد وذرية، فقال أبو بكر يبدأ معهم النقاش: كيف حال الأبناء؟ كيف حال البنات والأهل؟ قال: أما تستحي أنا يكون لي أبناء وبنات؟ لا بد أن يكون الراهب منقطعاً عن الدنيا.. منقطعاً عن الأبناء.. منقطعاً عن البنات. قال: سبحان الله تنزه نفسك من الأولاد والبنات وتنسبها إلى الله- لأنهم ينسبون عيسى ولداً لله ﷻ - فاحمر وجهه وغضب- لأنه صاده صيدة، يعني: أنت بشر تأنف أن يكون لك ولد وبنت، وتنسب عيسى تقول: ابن الله، قال: ماذا قيل في عائشة زوجة رسولكم ﷺ- يعني: كلام المنافقين- قال: قيل فيها وبرأها الله كما برأ الله مريم وعند مريم ولد- يقول أبو بكر: لو كان بشيء كان عند مريم ولد وقد قالوا فيها وبرأها الله، فمن باب أولى عائشة ما عندها ولد والله سبحانه وتعالى برأها فهي البريئة مثل براءة مريم- فعجب الناس لذكائه؛ ولذلك اختاره الخليفة ليرسله لمثل ذلك.

وأما سرعة البداهة فهي من الذكاء والرأي، مثلما يقول أبو الطيب. ومن أسرع الناس بديهة علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه، سأله رجل: كم بين الأرض والعرش؟ قال: دعوة مستجابة.

يعلمون بأمور ربانية، ما عندهم أميال ولا مقاسات هندسية، دعوة مستجابة؛ لأن النبي ﷺ يقول لمعاذ: «**واتقِ دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**»، وفي بعض الآثار: «**إن الله يقول لدعوة المظلوم: وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين**»، فالدعوة السريعة هي دعوة المظلوم.

قال رجل لعلي بن أبي طالب: كم بين الشرق إلى الغرب؟ قال: مسيرة الشمس يوماً.

قال: ما للناس اجتمعوا على أبي بكر وعمر ولم يجتمعوا عليك؟ قال: لأن رعية أبي بكر وعمر أنا وأمثالي، ورعيتي أنت وأمثالك.

قال: أنت أحسن الناس، قال: أنا فوق ما في نفسك ودون ما تقول، فأنت في نفسك أني لست بذاك، فأنا فوق ما في نفسك، وأنت بالغت في القول وأنا دون ذلك.

هو يصنع الكلمات رحمه الله، الكلمة المشهودة التي يقول ابن عبد البر: ما قيل مثلها: قيمة كل امرئ ما يحسن.

ومن الدهاة في سرعة البداهة ابن أبي العيناء الذي ألف فيه كتاب: أخبار ابن أبي العيناء للشيخ العبودي؛ فعنده سرعة بديهة للجواب، وكان أعشى وكان مجدر الوجه، فرآه رجل من حساده، فقال: كأن وجهك وجه قرد، قال: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ [يس:٧٨].

ومرة مرّ بوزير اسمه ابن عبيد الله كان في الدين متساهلاً، ليس بصاحب صلاة ولا دين، فقام يتنفل، قالوا: ما رأيك يا ابن أبي العيناء الوزير يتنفل؛ يصلي الضحى؟ قال: لكل جديد لذة، ذاق طعم الصلاة، فوجد لذة.

والعمري كان رئيس وزراء اليمن وأديباً له كتاب: سفينة الأدب والتاريخ، يقول: كان هناك رجل سريع البديهة من العلماء، فجلسوا يتغدون عند أحد الأعيان في اليمن، وهذا الرجل مشهور عنه أنه يتعامل بالسحت، يتعامل بالربا، ومشهور عنه الكذب، فهم على مأدبته على الغداء عند السفرة عنده وهو لم يجلس معهم، جلس يناظر فيها ويحكي لهم كذباً، يحدثهم قصصاً خرافية، ثم التفت إلى العالم وقال: كيف حالكم يا فلان؟ قال: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة:٤٢]، وهذا لفظ القرآن، الله سبحانه وتعالى يقول عن بني إسرائيل: ﴿سَمَّٰعُونَ

لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ﴾[المائدة:٤٢] يقول: يسمعون الكذب ويعملون به، ويأكلون السحت، فانظر كيف أجابه، يقول: نحن نأكل على مأدبتك السحت ونسمع الكذب، لكن لا يأتي بمثل هذه إلا قليل من الناس، وابن الجوزي أتى في كتاب الأذكياء بنقولات من هذا، ومن أذكى الناس سيد الخلق ﷺ.

وأبو سفيان بن الحارث ابن عم رسول الله ﷺ كان من الذين يهجون رسول الله ﷺ، وكان يحاربه في الغزوات، وكان ضده، فلما أتى الفتح، والرسول ﷺ يريد فتح مكة يقيم دولة العدل ويلغي دولة الظلم والاستبداد والكفر، فجاء أبو سفيان فأخذ أطفاله يريد الفرار بهم إلى البرية، فلقيه علي بن أبي طالب، قال: إلى أين يا أبا سفيان؟ قال: أذهب بأطفالي، والله لئن وجدني محمد ليقطعني إرباً إرباً، قال: والله ما صدقت، والله إنه أبر الناس، وأحلم الناس، وأرحم الناس، انظر إلى ذكاء علي! عد إليه يا أبا سفيان، وأسلم، فإذا أسلمت فسلم عليه بالنبوة أي: على الرسول ﷺ- وقل له: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾[يوسف:٩١]، لأنهم قرابة وأبناء عمومة، ويعلم علي أن الرسول ﷺ سوف يأتي بالآية التي بعدها، جواب يوسف عليه السلام؛ لأن يوسف لما قال له إخوانه: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾ [يوسف:٩١] ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [يوسف:٩٢]، فجاء أبو سفيان- وحفّظه علي- في الطريق قال أبو سفيان: ما هي الكلمة؟ قال: قل: ﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾ [يوسف:٩١] مع العلم أنه قاتل، وسب رسول الله ﷺ بقصائد، وشارك في إيذائه وشارك في طرده، لكن انظر أحلم الناس عليه الصلاة والسلام، ورسول الله ﷺ جالس، مثلما قال البوصري:

كأنّه وهوَ فردٌ في جلالتِه ... في عسكرٍ حينَ تلقاهُ وفي حشمِ

وحيد كأن الدنيا معه عليه الصلاة والسلام، عليه من المهابة والجلالة والصدق والكرم والوفاء ما يعلم الله من حسن ومن كرم، فأتى ومن الصحابة من هو واقف، فأتى أبو سفيان وقال: السلام عليك يا رسول الله، ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ [يوسف:٩١]، فرفع رسول الله ﷺ رأسه وقال: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[يوسف:٩٢]»، وبكى الناس من هذا الموقف، ودخل ﷺ منتصراً وقال لأعدائه: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**» بأبي أنت وأمي يا رسول الله.

إنْ كانَ أحببتُ بعدَ اللهِ مثلَك في ... بدوٍ وحضرٍ وفي عربٍ وفي عجمِ

فَلا اشتفَى ناظري منْ منظرٍ حسنٍ ... ولاَ تفوّهَ بالقولِ السَّديدِ فمِي

اللهم سددنا، وآتنا قولاً رشداً.

obeikandl.com

شعر الشكوى

يقول أبو الطيب المتنبي:

رماني الدَّهرُ بالأرزاءِ حتَّى

فؤادي في غشاءٍ مِنْ نِبَالِ

نسب الرمي إلى الدهر والدهر إنما هو ظرف لمقدورات الله ﷻ ومقدراته جل في علاه، والله سبحانه وتعالى هو الفاعل، وهو سبحانه وتعالى المقدر، وهو الذي يقضي لا الدهر، لكن هذا من تجاوز الشعراء فإنهم ينسبون الحوادث إلى الدهر والأيام والزمان والليالي، والذي يتصرف فيها هو الله سبحانه وتعالى، حتى في الحديث الصحيح

في البخاري قال: «**يسبني ابن آدم وما ينبغي له ذلك**» يعني: يسب الدهر، ومن سب الدهر فإنما يعود السب على من أحدث الحوادث أو من قدر الحوادث وهو الله سبحانه.

يقول: من كثرة ما أتاني من سهام الدهر والأيام والمصائب أصبح فؤادي وقلبي في غشاء من كثرة السهام التي وقعت علي.

فصرتُ إذا أصابتني سهامٌ ... تكسرَتِ النِّصالُ علَى النِّصالِ

لكثرتها يتكسر بعضها على بعض.

فعشتُ ولا أبالي بالرَّزايَا ... لأنِّي ما انتفعتُ بأنْ أبالي

يقول: ما دمت باليت فما نفع عدم مبالاتي؟ واهتممت من هذه الأمور فما نفع اهتمامي ولا حزني، فلن أحزن ولن أهتم ما دام ذلك لم ينفع، وهي قصيدة من قصائده البديعة التي مطلعها:

نعدُّ المشرفيَّةَ والعوالي ... وتقتلُنا المنونُ بلا قِتَالِ

يعني: نجهز السيوف والرماح ونعلقها حتى ندفع الأعداء ونرد الخصوم لكن الموت يدخل علينا فلا يرده سيف ولا رمح ولا صاروخ ولا دبابة، يقتحم علينا بيوتنا.

ونرتبطُ السوابِقَ مقرباتٍ ... فمَا ينجينَ مِنْ خببِ اللَّيالِي

يقول: الخيول نربطها قريبة منا؛ لكي نكرّ بها ونفرّ ونصول ونجول فما ينجيننا من مصائب الليالي، تأتينا الليالي مسرعة لنا والخيول ما تنجينا منها.

ومن أبدع أبيات هذه القصيدة قوله يمدح سيف الدولة:

وإنْ تفقِ الأنامَ وأنتَ منهُمْ ... فإنَّ المسكَ بعضُ دمِ الغزالِ

وحالاتُ الزمانِ عليكَ شتىً ... وحالُكَ واحدٌ في كلِّ حالِ

يقول: تتقلب بك الأمور، وتتقلب بك الأيام ولكن حالك واحد، فالأيام سرور وحزن وشدة ورخاء، ولكن أنت في الشدة وفي الرخاء وفي السرور والحزن واحد من الثبات والرسوخ والشجاعة، وقد سار الشعراء على هذا المعنى، يقول شاعر كبير:

تنكَّرَ لِي دهرِي ولَمْ يدرِ أنَّنِي ... أعزٌّ وأحداثُ الزمانِ تهونُ
فباتَ يرينِي الدهرُ كيفَ اعتداؤُه ... وبتُّ أُرِيه الصَّبرَ كيفَ يكونُ

وأعود إلى القول: إن الدهر لا يتنكر، ولا يقدر شيئاً ولا يضر ولا ينفع، إنما الذي يضر وينفع ويقدر هو الله وحده سبحانه وتعالى.

يقول: باتت الأيام والمصائب تريني قوتها، وأنا أريها الصبر الذي عندي.

ويقول شاعر آخر:

تستَّرتُ مِنْ دهرِي بظلِّ جناحِه ... فعينِي ترَى دهرِي وليسَ يرانِي
فلَو تسألُ الأيامَ عنِّي ما درَتْ ... وأينَ مكانِي ما عرفْنَ مكانِي

وهذا من أبدع الأبيات. فكلٌّ يشتكي؛ لأن الحياة طبعت على كدر كما قيل، فهي منغصة ودار نكد ودار هم حتى يقول الشاعر:

كلُّ مَنْ لاقيتُ يشكُو دهرَه ... ليتَ شعرِي هذهِ الدُّنْيا لمَنْ

خلقت لمن؟ يعني: لا أحد مرتاح عليها، المرتاح تكون له قصة وغصة، ما ملئت دار حبرة إلا ملئت عبرة، في كل وادٍ بنو سعد، مصائب وفجائع وأزمات ومشكلات، هذه هي الدار، يقول التهامي:

طبعَتْ علَى كدرٍ وأنتَ تريدُها ... صَفْواً مِنَ الأقذاءِ والأكدارِ
ومكلِّفُ الأيامِ غيرَ طباعِها ... متطلبٌ فِي الماءِ جُذوةَ نارِ

فكلهم يسير على هذا المعنى، والواجب على الإنسان أن يفزع إلى الواحد الأحد في هذه، ليخفف عنه، والله سبحانه وتعالى خلاف ما قال الشعراء يقول: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح:٥-٦] ويقول: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٧] يأتي فرج وسوف تتيسر الأمور وتسهل الأزمات، وبعد الليل نهار، وبعد القحط غيث، وبعد الجوع شبع، وبعد الظمأ ري، سنة ماضية.

هيَ الأيامُ والغِيَرُ ... وأمرُ اللهِ يُنتظرُ
أتيأسُ أنْ ترَى فرجاً ... فأينَ اللهُ والقدرُ

وكما يقول أحد الشعراء الشعبيين:

لا تشتكي يا واحدٍ بات مهموم ... ترى الفرج عند اكتراب الحزامِ
وإن كان عينك خالفت لذة النوم ... أنته تنام وخالقك ما ينامِ

فما دام الله سبحانه على العرش استوى، فإنه يقلب الأمور إن شاء الله من العسر إلى اليسر. وأبو تمام لخص هذه الأيام جميعاً كما في بعض المناسبات يقول:

مرَّتْ سنينٌ بالسعودِ وبالهنَا ... فكأنَّها مِنْ قصرِها أيَّامُ

يقول: في حياتنا مرت بنا سنون، سنوات جميلة من الرغد والراحة والاستقرار والأمن مثل الأيام التي تمر بك وتمر بي. فكأن السنة يوم؛ لأن أيام الخير وأيام الرغد وأيام السكينة قصيرة، ولكن أيام الشقاء وأيام الحبس وأيام المرض وأيام الضنك وأيام المشقة طويلة، قال:

ثمَّ انثنَتْ أيامُ هجرٍ بعدَها ... فكأنَّها مِنْ طولِها أعوامُ

جـاءت أيام شدة وأيام صعوبات كل إنسان لا بد أن يمر بها ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ [الانشقاق:١٩]، شـدة ورخـاء، وجوع وشبـع، وفقر وغنى، ومرضـ وصحة.. وهكذا. هذه الأيام كأنها أعوام من الهم والنكد.

ثمَّ انقضَتْ تلكَ السِّنين وأهلُها ... فكـأنَّـهـا وكـأنَّـهـم أحـلامُ

وهذه أيام الناس لم يبقَ أحد، الذين عاشوا السرور، الذين عاشوا الراحة، الذين عاشـوا الضنك، الذين عاشوا المرض، كلهم ذهبوا، مـن اغتنى ومن افتقر، من صح ومـن مرض، من وصل ومن هجر، كلهـم ذهبوا، حتى إن من اللطائف الأدبية ما يروى أن هنـاك سجنـاً اسمـه سجن عارم، وعارم هـذا كان مولى لعبـد الرحمن ابن عوف غضب عليه فسجنه في بيت في مكة، فسمي سجن عارم، ثم اشترى البيت ابن الزبير وسجـن فيه محمد ابن الحنفية؛ لأنه لم يبايعـه، فمحمد ابن الحنفية من ولد علي بن أبـي طالب رضي الله عنه، فسجنه، فأتى جيشـ من العراق وأخرجوا محمـداً الرجل الشريف العظيم هذا من السجن، فغضب كثير عزة على ابن الزبير وقال:

تـحـدَّثُ مَـنْ لاقيـتَ أنَّـك عـائـذٌ ... بلِ العائذُ المظلومُ في سجنِ عارمِ

لأن ابن الزبيـر رضي الله عنه يسمي نفسه العائذ ببيت الله، يعني: تخندق في الحرم وسمـى نفسـه: العائذ ببيت الله، قال: هـو محمد ابن الحنفيـة المظلوم العائذ لا أنت، فيريد أن يقول: لا تفرح كثيراً أنك والٍ وأنك سجنته.

فمَا هـذهِ الـدُّنْيـا جـمـالٌ لأهلِـهـا ... ومَا الشرُّ في الدُّنْيا بضربةِ لازمِ

يعني: الشر لن يستمر.

لـكـلِّ زمـانٍ دولـةٌ ثـمَّ تنقضِـي ... ويـصـبـحُ مـا لاقيـتَه حلمَ حالمِ

كل الدنيا سيصير أحلاماً.

الآن أيـن ابن الزبير؟ أين سجن عـارم؟ أين محمد ابن الحنفية؟ كلها تاريخ ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريـم:٩٨]، والمصائـب أتت الكبار

والصغـار، ومرت بهم على حسب إيمان الإنسان، كما قال ﷺ: «**يبتلى العبد على حسب إيمانه**» وكما قال ﷺ: «**ويبتلى الأمثل فالأمثل**» «**وإذا أحب الله قوماً ابتلاهم**»، وفي الصحيح: «**من يرد الله خيراً يصب منه**»، فلذلك يقول عروة بن الزبير لما بترت رجله ومات ابنه محمد في يوم واحد:

لعمرُك ما مدَّيتُ كفي لريبةٍ ... ولا حملتني نحوَ فاحشةٍ رجلي

ولا دلَّني فكري ولا نظري لها ... ولا دلَّني سمعي عليهَا وَلَا عقلي

وأعلمُ أنِّي لَمْ تصبْنِي مصيبةٌ ... مِنَ اللهِ إلا قَدْ أصابَتْ فتًى قبلِي

وهذه الأبيات لمعن بن أوس، ولكنه استشهد بها.

فيقول: إن هذه المصائب تمر بالناس جميعاً؛ ولذلك عليك أن تتسلى وتتعزى، فهذه الدار مفجعة والقرار عند الواحد الأحد، وما دمت مؤمناً تحمل الإيمان فهذا الذي يجعلك تفوض الأمر إلى الله، ولذلك تجد الشعراء مثل المتنبي يبتلى بضعف إيمان، فقلما يتوكل على الله: يتشكى من الزمان، ومن تقلب الناس، ومن الغدر، ولو كان صاحب طاعة وعاد إلى كتاب الله ﷻ وسنة الرسول ﷺ لوجد الهناء.

وابن تيمية لما سجن غفر الله له قال: ماذا يفعل أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، أنى سرت فهي معي، أنا قتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة، وسجني خلوة.

وزاروه مرة وهو مريض قالوا: ماذا يوجعك يا أبا العباس ويؤلمك؟ قال:

تموتُ النفوسُ بأوصابِها ... ولم يدرِ عُوّادُها ما بِهَا

وما أنصفَتْ مهجةٌ تشتكِي ... أذاها إلى غيرِ أحبابِهَا

فالشكوى إلى الله سبحانه وتعالى.

وهذا أبو ذؤيب الهذلي مات له سبعة أبناء في الطاعون، فقال:

أمِنَ المنونِ وريبِها تتوجَّعُ ... والدهرُ ليسَ بمعتبٍ مَنْ يجزعُ

ومن ضمن الأبيات:

وإذا المنيةُ أنشبَتْ أظفارَها ... ألفيتَ كلَّ تميمةٍ لا تنفعُ

وتجلُّدي للشامتينَ أريهِمُ ... أنِّي لريبِ الدهرِ لا أتضعضعُ

حتَّى كأني للحوادثِ مروةٌ ... بصفا المشقرِ كلَّ يومٍ تقرعُ

أبيات جميلة، لكنّ فيها شكوى وتبريحاً، والإنسان أحياناً ينفس عن نفسه ببيت، مثلما قال الأول:

ولا بدَّ مِنْ شكوَى إلَى ذي قرابةٍ ... يواسيكَ أو يسليك أو يتوجَّعُ

فإذا أحسست بإنسان من أهل الفضل والإحسان والخير فلك أن تشاجيه وتحدثه دون أن تشكو الله إلى عباده سبحانه وتعالى، يقول المتنبي:

لا تشكُوَنَّ إلى عبدٍ فتُشمِتَه ... شكوَى الجريحِ إلى الغربانِ والرخمِ

إنسان مجروح ويذهب عند الغربان التي تتمنى المجروح، والرخم يتمنى أن تأكل من المجروح، فيقول: إن الناس مثل الغربان والرخم تشكو لهم جراحك وهم يتمنونها، اشكُ للواحد الأحد سبحانه وتعالى الذي هو يعلم السر وأخفى، والذي بيده اللطف سبحانه، وهو المعافي والمشافي وهو الكافي، وهذا شأن المؤمنين؛ فلما أُخبر ﷺ بأن الكفار يجمعون له قال: «**حسبنا الله ونعم الوكيل**»، فنقلت هذه في أجمل صورة في القرآن: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾ [آل عمران:١٧٣] يعني: الكفار، ﴿فَٱخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران:١٧٣] قال عن المؤمنين والرسول ﷺ: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران:١٧٣] ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ

عَظِيمٍ ﴾ [آل عمران: ١٧٤]، ولهذا أحياناً تأتي الإنسان مصائب، حتى يضطر إلى أن يقبل بأي شيء، ولو كان لا يقبل به في أيام المعافاة والصحة، يقول:

يقضَى علَى المرءِ في أيامِ محنتِه ... حتَّى يرى حسَناً ما ليسَ بالحسنِ

شيء ليس بحسن لكنك مضطر فترى أنه حسن، مثل قول المتنبي:

ومِنْ نكدِ الدنيا علَى الحرِّ أنْ يرَى ... عَدُوّاً له ما مِنْ صداقتِه بُدُّ

يقول: إنها تضطرك إلى أن تجامل، تأتي عدواً لكنك مضطر فتجامله حتى تقضي أمورك، ولو ما فعلت ذلك لما حصل من ذلك شيء، وهذه من نكدها، ويقول آخر:

رُبَّ يومٍ بكيتُ مِنْه فلمَّا ... صرتُ في غيرِه بكيتُ علَيه

يقول: كنا نبكي من أيام ونقول إنها قاسية وشديدة، وجاءت أيام أغلظ منها وأفظع فبكينا على تلك الأيام، قلنا: يا ليت تلك الأيام ترجع لنا، وبكينا عليها وقلنا: ليتها تعود لنا، وأبو الطيب له قصيدة أخرى فيها تفجع يقول:

صحِبَ الناسُ قبلَنا ذا الزمانا ... وعناهُمْ مِنْ شأنِه ما عنانَا

وتولَّوا بغصَّةٍ كلُّهم مِنْه ... وإنْ سرَّ بعضَهم أحيانَا

ونعود للمتنبي في قصيدته التي يقول فيها:

رمانِي الدَّهرُ بالأرْزاءِ حتَّى ... فؤادِي في غشاءٍ مِنْ نِبَالِ

هو يرثي أخت سيف الدولة، ومن ضمن الأبيات يقول:

ولو أنَّ النساءَ كمَنْ فقدْنا ... لفُضلتِ النساءُ علَى الرِّجالِ

فما التأنيثُ لاسمِ الشمسِ عيبٌ ... ولا التذكيرُ فخرٌ للهِلَالِ

فنحن نسميها شمساً بالتأنيث، وليس الرجل على إطلاقه أفضل من المرأة، فبعض النساء أفضل من الرجال، ولو أنها أنثى، فالشمس اسمها مؤنث، وهي أفضل من الهلال المذكر، وهذا من نبوغه وعقله وعبقريته وذكائه ومن ألمعيته أن يأتي بمثل هذه الأمثال.

ونعود إلى كلامه في القصيدة، ولا بد من أن أقف معه وقفة، فهو يقول في نفس القصيدة:

وحالاتُ الزَّمانِ عليكَ شتَّى ... وحالُك واحدٌ في كلِّ حالِ

يعني سيف الدولة؛ لأنه في فجيعة من موت أخته، وتأتيه مصائب وتأتيه انتصارات وفتوح، ولكنه في الشدة وفي الرخاء واحد ثابت على منهج واحد، وهذه حال المؤمن فهو دائم مستمر في الصيف، في الشتاء، في السلم، في الحرب، في الغنى، في الفقر، فيقول: في ثباتك وفي رسوخك أنت ثابت دائم، ثم أتى بذلك البيت الفريد:

وإنْ تفُقِ الأنَامَ وأنتَ منهُمْ ... فإنَّ المِسْكَ بعضُ دمِ الغَزالِ

وهذا المعتمد بن عباد الأمير الملك في الأندلس كان آية في الجود والكرم والعلم والفهم وفي الأخير غلبه على مملكته يوسف بن تاشفين المرابطي قائد المرابطين، وقاده مقيداً إلى السجن، فما رُئيَ أصبر منه ولا أحزم منه، ووضعه في سجن أغمات وجاءت بناته يعدنه في العيد وهو في السجن بعدما سلب ملكه وأخذن يغزلن للناس بالأجرة، وجئن حافيات حسيرات جائعات، ويوم رآهن من وراء الباب دمعت عيناه، وسلمن عليه، فقال يخاطب نفسه:

فيمَا مضَى كنتَ بالأعيادِ مسرورًا ... فزارَك العيدُ في أغماتَ مأسُورًا

يقول: كنت ملكاً ذاك الوقت والدنيا معك. والآن أنت محبوس.

تـرَى بنـاتَك فِي الأطـمـارِ بـالِيَـةً ... يطأنَ فِي الطينِ ما يملكنَ قِطْميرَا
يطأْنَ في الطينِ والأقدامُ حافيةٌ ... كـأنَّهـا لـم تـطَـأْ مِسْكاً وكـافُورَا

كأنهـن مـا مشين فـي القصر قبـل، القصـر الملكـي، والبـلاط الملكي على المسك والكافور؟

ولذلك لا يغتر بهذه الدنيا إلا مخدوع، يمسي الإنسان ثرياً ويصبح فقيراً، ويصبح معافى ويمسي وهو مريض، ويمسي شاباً وتجد فيه قوة وما يأتي الغروب إلا وينقل إلى المقبرة، فلا أمان، الأمان في جنات النعيم، الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه يقول له ابنه عبـد الله: متى الراحة - يعني في الدنيا-؟ قـال: إذا وضعت رجلك اليمنى في الجنة فقـد ارتحت، أما قبلها فلا، يعني: قبـل أن تتجاوز الصراط لا تظن أن لك راحة، إذا تجاوزت الصراط ودخلت الجنة فتلك الراحة، نسأل الله أن يحقق لنا ذلك وإياكم.

والبرامكـة أيضاً نكبوا، سيقوا في عهد هـارون الرشيد وأخذهم إلى الحبس وقتل جعفر البرمكي وسجن الفضل وسجن يحيى بن خالد وكانوا يسمونهم: عروس الدنيـا، وقبـة الفلك، عندهم من الجـود والعطاء والبذل، وأقبلـت الدنيا عليهم، وكان الأعيـان يقفون لهم، والدنيا تحييهم، والزمان يصفق لهم، ثم غضب عليهم هـارون الرشيد، فأخذهم وبددهم، ووضعهم في الحبس، وقتل بعضهم، حتى جاء أميـر متأخر يحسدهم بعدهم بمئة سنة، وبعض الناس يحسد من قبله، فبعضهم يأتي الآن يحسد المتنبي، وبعض طلبة العلم يحسد ابن تيمية يقول: ليس بصحيح مثلاً القصص التي تروى عن حفظ ابن تيمية، فالناس يبالغون، وأظن الشافعي لا يحفظ هذا العدد، وهو لا يحفظ أركان الصلاة.

وابـن أبـي العيناء هذا الداهيـة الدهياء صاحب سرعـة البداهة أديب وكان مباشـرة يجيب، عنده سرعة بديهـة وجواب حاضر، حتى ألف فيه الشيخ العبودي

الرحالة كتاب أخبار ابن أبي العيناء، فقال هذا الأمير وهو متأثر: إن الناس يذكرون البرامكة، وقد مات البرامكة وقتلوا وذهبوا، لكن كرمهم إلى الآن يذكر، قال: ليس بصحيح كثرة ما ينقل عن البرامكة في الكرم، الناس يكذبون، فقال ابن أبي العيناء: أيها الأمير، أنت حي ترزق وترجى وتخاف لماذا لا يكذب الناس عليك ولو كذبة في الكرم، وهؤلاء أموات لا يرجون ولا يخافون والناس يكذبون عليهم فسكت، فكأنما ألقمه حجراً.

فالبرامكة لما سجنوا قيل ليحيى بن خالد: بعد النعيم وبعد العز وبعد السؤدد توضعون في الحبس؟ قال: دعوة مظلوم سرت في ظلام الليل غفلنا عنها وما غفل الله عنها، وحتى إنهم في الحبس يستشهدون بقول الشاعر:

خرجْنا منَ الدُّنْيا ونحنُ مِنْ أهلِها فلسْنا منَ الأمواتِ فيهَا ولا الأحياءِ

لسنا في الدنيا ولا في الآخرة.

(**إذا جاءَنا السجانُ يوماً لحاجةٍ**) إذا فتح العسكري الجندي فتح الباب.

(**عجبْنا وقُلنَا: جاءَ هذا مِنَ الدُّنْيا**) الدنيا التي يسمونها، جاء عندنا يزورنا.

وهشام بن عبد الملك الخليفة الأموي يقول: جمعت أيام السعادة في حياتي فما وجدت إلا ثلاثة عشر يوماً، التي ما جاء فيها تعكير، بالرغم من أنه ملك وجاءت الأموال والجيوش والعسكر والوزراء والناس والأمة.

ويقولون: إن أحد الخلفاء الأندلسيين وأظنه الناصر قال: أريد أن أبقى يوماً ما أسمع خبراً سيئاً، فدخل في بستان وقال للحرس والحجاب والوزراء والجنود: لا تخبروني بشيء، فلما جلس وحده وقرب الظهر وإذا بسهم فيه دم وقع بجانبه، قال: لن أرتاح يوماً واحداً، لا بد من إزعاجات، هذه حال الدنيا.

وذكر ابن كثير: إن ابن مقلة كتب المصحف ثلاث مرات، خط ابن مقلة خط مشهور في العالم الإسلامي، هذا ماذا فعل؟ سطا على دار لعجوز مسكينة هناك فدعت عليه فقطعت يده، حتى يقول:

(يا حياتي، بانتْ يميني فبيني)

من قصيدة ذكرها الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية.

وأتى بعده ابن بقية الوزير فأطعم المساكين، وحفظ القرآن، ونشر الخير، وأخذ الناس يدعون له، والخطباء يذكرونه يوم الجمعة، فأخذت الغيرة الملك عضد الدولة فن خصرو الديلمي، وهو بطاش قتل أربعة ملوك من قرابته وأتى برؤوسهم يوم عيد الأضحى وركبها فوق بعضها، وجاء يسلم عليه أحد الشعراء، فقال:

صلْ يَا ذَا العُلا لربِّك وانْحرْ ... كلُّ ضدٍّ وشانيٍ لكَ ابْترْ

أنتَ أعلَى مِنْ أن تكونَ أضاحيـ ... ـك قُرُومًا مِنَ الجمالِ تعفَّرْ

يسلم عليه يوم العيد ويبارك له يوم العيد، وإذا الرؤوس معلقة، هؤلاء الأربعة ملوك وقادة الجيوش رؤوسهم معلقة في المجلس كلهم؛ لكي يري الناس أنه مهيب، وهو من أبطش ومن أجبر من تولى في التاريخ واسمه عضد الدولة مدحه المتنبي بقصيدته اللامعة التي يقول فيها:

فِداً لكَ منْ يقصرُ عَنْ مدَاكَا ... فما ملكٌ إذاً إلا فداكَا

أروحُ وقَدْ ختمتُ علَى فؤادِي ... بحبِّك أنْ يحلَّ به سُواكَا

إذَا اشتبكَتْ دموعٌ فِي خدودٍ ... تبيَّنَ مَنْ بكَى مِمَّنْ تباكَى

هذه القصيدة التي مدح بها عضد الدولة.

فدخل عليه ذلك الشاعر وإذا برؤوس الملوك وقادة الجيش الذين قاتلهم معلقة يوم عيد الأضحى فقال: أنت لا تضحي بالجمال ولا بالبقر ولا بالغنم.

بَلْ قُرُوماً مِنَ المُلوكِ ذوي الـ ـسُؤْدُدِ تيجانُهم أمامَك تنثُرْ

في المعركة، يقول: تنثر تيجانهم وتقطع رؤوسهم.

كلَّما خرَّ ساجِداً لكَ رأسٌ منهم قالَ سيفُك: اللهُ أكبَرْ

يقول سيفك: الله أكبر وتنزل رؤوسهم يقطعها، وهذا من أجمل ما قيل في المدائح، ولو أن فيه شراسة وفيه تهييج على الاعتداء ولكن هكذا التاريخ كتب.

فهذا ابن بقية الذي كان مطعماً أخذت الغيرة منه عضد الدولة فافتعل ضده إشكالاً وقتله وصلبه عند باب الطاق وخرج أهل بغداد وإذا هو مصلوب اليدين وصدره مكشوف، فبكى العلماء وتأثر المساكين الذين كان يطعمهم والأيتام والمحاويج وقفوا، وقام أبو الحسن الأنباري؛ لأن أعطياته وطلابه في المسجد كثيرة فمنهم عالم ولغوي وشاعر فوقف عليه وسلم وبكى، وقال:

علوٌّ في الحياةِ وفي المماتِ بحقٍّ أنتَ إحدَى المُعجزاتِ

كأنَّ الناسَ حولَك حينَ قامُوا وفودُ نداكَ أيَّامَ الصِّلاتِ

كأنَّك واقفٌ فيهِمْ خطِيباً وهُمْ وقفُوا قِيَاماً للصَّلاةِ

مددتَ يديْكَ نحوَهُمُ احتفاءً كمدِّهم إليهِمْ بالهِبَاتِ

ولمَّا ضاقَ بطنُ الأرضِ عَنْ أنْ يُوَاروا فيهِ تلكَ المَكْرماتِ

أصارُوا الجوَّ قبرَك واستعاضُوا عنِ الأكفانِ ثوبَ السَّافِياتِ

ومالكَ تربةٌ فأقولُ تُسْقَى لأنَّك نصبُ هطلِ الهاطلاتِ

عليكَ تحيةُ الرحمنِ تَغْدُو بتبريكِ الغوادي الرائحَاتِ

لعظمِكَ فِي النفوس تبيتُ تُرعى بحرَّاسٍ وحفَّاظٍ ثِقَاتِ

لأنهم وضعوا عسكراً حوله وجنوداً؛ لكيلا ينزله أحد من الجبل.

obeikandl.com

وتُوقدُ حولَك النيرانُ ليلاً   كذَلِكَ كنتَ أيّامَ الحَياةِ

مبكية، مفجعة، مفزعة، لا يوجد في الأدب مثل هذه القصيدة، حاول الشعراء أن يعارضوه فما وجدوا لذلك من سبيل.

يقول: ولو أني استطعت القيام بحقه علينا والقيام بالحقوق والواجبات؛

ملأتُ الأرضَ مِنْ نَظمِ القوافِي   ونحتُ بِهَا خلافَ النَّائِحَاتِ

وهذه من الوقفات فيمن أصيب، فيمن فجع، فيمن أتته داهية دهياء وهو ابن بقية، وفي الناس كثير ممن أصيبوا، والتاريخ مليء بهذا.

اللهم احقن دماء المسلمين.

obeikandl.com

ليل الشعراء

يقول أبو الطيب المتنبي:

وكَمْ لظلامِ اللَّيلِ عندَكَ مِنْ يدٍ
تحدّثُ أنَّ المانويةَ تكذِبُ

مـا معنى هذا الكلام؟ هـو طبعاً يمدح كافورًا، والمانويـة: مذهب أرضـي كفري يـرى أن النور إله الخير، وأن الظلام (الليل) إله الشر، فيرون أن من يقاتل في الليل لا ينتصر؛ لأنه معه إله الشر، وأنه لا بد أن يقاتل الإنسان في النهار حتى ينتصر، فكافور قاتل فـي الليل فانتصر، فيقول: أنـت الآن ترد على المانوية؛ لأنك انتصرت، وهذا دليل على أن المتنبي كان مطلعاً وكان مثقفاً، وهذه عبقرية طبعاً، قال:

(**وكمْ لظـلامِ الليـلِ عندَك مِنْ يـدٍ**): من جميل، (**تحدِّثُ**) هـذه اليد، (**أنّ المانويـةَ تكـذِبُ**) والدليـل أنها تكذب أنك انتصرت في الليـل، وهذا صحيح أنها كاذبـة في زعمها، فـالله وحده سبحانه الـذي يقدر الخير والشـر، والإله الواحد سبحانــه هو الذي يستحـق العبودية لا إله إلا هو، لكنه تفنـن في هذا البيت فكان جميلاً، وهي من قصيدته الرائدة التي قال فيها:

أغالِبُ فيكَ الشوقَ والشوقَ أغلبُ ... وأعجبُ مِنْ ذا الهجرِ والوصلُ أعجبُ

إلـى أن أتـى بهذا البيـت وذكر فيه الليـل. والعرب تذكر الليـل على أضرب: فمنهم من يشكو من طول الليل، كما فعل امرؤ القيس في معلقته التي يقول فيها:

وليلٍ كموجِ البحرِ أرخَى سُدُولَه ... علـيَّ بـأنـواعِ الـهـمـومِ ليبـتَلِي

فقلـتُ لـه لـمَّا تـمطَّى بصلبِه ... وأردفَ أعـجـازاً ونـاءَ بكلكلِ:

ألا أيُّها الليلُ الطويلُ ألا انجلِ ... بصبحٍ ومـا الإصْباحُ منكَ بأمثَلِ

فامرؤ القيس أحسن مَنْ وصف الليل من الشعراء، على أن بعض العلماء يقدم وصف النابغة فيقول: ليلة نابغية، ففي المرتبة الثانية النابغة أو زهير، أما المرتبة الأولـى فهي لامرئ القيس في الشعر؛ ويقولون: اليمين البارة هي للنابغة الذبياني واليمين الفاجرة هي لامرئ القيس؛ لأن امرأ القيس يقول:

حلفتُ لـها بـالله حلفـةَ فاجـرٍ ... لنامُوا فما إنْ مِنْ حديثٍ ولا صالي

وأما النابغة الذبياني فإنه حلف يميناً بارة وذكر الله في ذلك فقال:

حلفتُ فلَمْ أتـركْ لنفسِك ريبـةً ... ولـيسَ وراءَ اللهِ للمـرءِ مذهـبُ

يقـول: ما وراء الله مقصود للحالـف، الله أعظم من كل شيء، فجعل العلماء يمين النابغة هي اليمين البارة، وأما يمين امرئ القيس فهي يمين فاجرة.

نعود لليل، ليلة نابغية التي تشبه ليلة النابغة التي يقول فيها:

كليني لهمٍّ يا أميمةُ ناصبِ ... وليلٍ أقاسيه بطيءِ الكواكبِ

تطاولَ حتّى قلتُ: ليسَ بمنقضٍ ... وليسَ الذي يرعَى النجومَ بآيبِ

وصدرٍ أراحَ اللّيلَ عازبِ همّه ... تضاعفَ فيهِ الحزنُ مِنْ كلّ جانبِ

ثم مدح الملوك إلى أن يقول فيها:

ولا عيبَ فيهم غيرَ أنّ سيوفَهم ... بهِنّ فلولٌ مِنْ قراعِ الكتائبِ

وعلى البحر والقافية هناك قصيدة لأبي تمام، وقصيدة للمتنبي يقول فيها من ضمن أبياته:

إذا علَويٌّ لم يكُنْ مثلَ طاهرٍ ... فما كانَ إلا حجّةً للنّواصبِ

وأما أبو تمام فقصيدته بديعة مدح فيها أميراً من بكر بن وائل، يقول:

لئنْ فخرَتْ يوماً تميمٌ بقوسِها ... وزادَتْ على ما أسّستْ منْ مناقبِ

فأنتُمْ بذي قارٍ أمالَتْ سيوفُكم ... عروشَ الذينَ استرهنُوا قوسَ حاجبِ

مناقبُ أقوامٍ إذا قرنُوا بها ... مناقبُ أقوامٍ تكنْ كالمثالبِ

ومعنى الأبيات يقول: أنت أيها الوائلي الأمير، من بكر بن وائل أجدادك انتصروا على فارس في معركة ذي قار، ومعركة ذي قار كانت في العام الثاني للهجرة، حتى إن رسول الله ﷺ دعا لهم ولم يكن معهم ﷺ، وكانوا وثنيين لكنهم عرب، فرسول الله ﷺ، طبعاً غضب لعروبيته ﷺ ولقومه وقال: «**اللهم انصرهم على فارس اليوم**» سأل الله أن ينصرهم على فارس.

وقصة القصيدة: أن تميمًا عطلوا قافلة لكسرى تذهب إلى اليمن، فأخذ منهم خمسين رهينة من تميم، فذهب حاجب بن زرارة وهو من ساداتهم ومعه

قوس لا تساوي درهمين، لكن عنده عزة وعنده مكانة في العرب وفي الناس، وهذه القوس مربوطة بعرق من جلد، فدخل على كسرى، فقال: أبيت اللعن أيها الملك- كلمة تقال للملوك في الجاهلية- أطلق لي الأسارى من بني تميم وهو سيدهم، قال: وما هو الرهن؟ ارهن لنا شيئاً، قال: هذه القوس، فضحك كسرى، وقال: في خمسين من بني تميم تعطيني قوساً، والربيع بن زياد كان عنده وهو عبسي، وقيل: إنه رجل آخر من العرب، قال: أيها الملك، والله لو كسرت هذه القوس ليقتلن من العرب مئة ألف، من عزة حاجب وقوة بني تميم، فأخذ القوس وأطلق الخمسين، فجاءت قافلة أخرى فعطلها بكر بن وائل فأخذ منهم خمسين، فاجتمع بكر بن وائل قالوا: ما عندنا مثل قوس حاجب، ولا عندنا مثل حاجب بن زرارة يشفع لنا عند الملك فماذا نفعل؟ قال هانئ بن قبيصة شيخهم: نقاتلهم مقاتلة، قال: فخرجت قبيلة بكر وقاتلوا فارس فانتصروا عليهم، حتى يقول شاعرهم الأعشى وهو شاعر بكر ابن وائل الذي كان يسكن في منفوحة في الرياض:

لمَّا التقينَا كشفْنا عَنْ جماجِمِنا ... ليعلمُوا أنَّنا بكرٌ فينصرفُوا

قالُوا: البقيةُ والهنديُّ يحصدُهم ... ولا بقيةُ إلا السيفُ فانكشفُوا

لَو أنَّ كلَّ معدٍ كانَ شاركَنا ... فِي يومِ ذي قارٍ ما أخطاهمُ الشرفُ

لمَّا أمالُوا إلَى النشابِ أيديَهم ... مِلْنا ببيضٍ فكانَ الهامُ تختطفُ

أتوا بالنشاب، بالسهام يضربون بها فهم رماة. فأخرجنا البيض من أغمادها يعني السيوف.

فانتصروا عليهم، فهذا أبو تمام يذكر الأمير الوائلي من بكر في القرن الثالث بعد الإسلام بهذا.

وكذلك يتطاول ليل المحبين أو المشتاقين أو أهل السهر ويطول عليهم الليل، يقول أحدهم:

يـا لـيـلُ الـصـبُّ مـتَـى غـدُه ... أقـيـامُ الـسـاعـةِ مـوعـدُه

وهذا مما ينقل من نهاة القصائد، وقال أحد العباد:

قـلـتُ لـلـيـلِ: هـل بـجـوفِـك سِـرٌّ ... عـامـرٌ بـالـحـديـثِ والأسـرارِ

قـالَ: لـم ألـقَ فِـي حياتِي حديثاً ... كـحـديـثِ الأحـبـابِ فِـي الأسـحـارِ

ما هو حديث الأحباب في الأسحار؟ جلسة السحر يوم يتنزل ملك الملوك سبحانه جل في علاه الأحد الصمد إلى سماء الدنيا، فيقول: «**هل من سائل فأعطيه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من تائب فأتوب عليه؟**» هذه الجلسة أحسن شيء، لا يعدلها شيء، وهي التي يجيب الله فيها الدعوة، كما يقول أحد الشعراء الشعبيين وهو ابن حميد:

وخـيـر مـنـهـا ركعـتـيـنٍ بـالأسـحـار ... لا طـاب نـوم الـلـي حـيـاتـه خـسـارة

فهذه الجلسة ما مثلها جلسة، وهي التي يثاب بها العبد ويفتح عليه حين يقوم يصلي الركعتين.

ومن العصر الحديث يقول أحد الشعراء يصف الصحابة رضوان الله عليهم:

عُبّادُ لـيـلٍ إذا جـنَّ الـظـلامُ بـهِـمْ ... كمْ عابدٍ دمعُه فِي الخدِّ أجرَاهُ

وأُسـدُ غـابٍ إذا نـادَى الجهادُ بهِمْ ... هبُّوا إلَى الموتِ يستَجْدُونَ رؤْياهُ

يا ربِّ فابعثْ لنا مِنْ مثلِهم نفراً ... يُشـيـدُون لـنَـا مـجـداً أضـعـنـاهُ

حتى ذكر ابن القيم من يقول:

فِـي الـلـيـلِ عُـبّـادٌ وعـنـدَ لـقـائِـهِـمْ ... لـعـدوِّهـم مِـنْ أشـجـعِ الـفُـرسـانِ

وهـذا مثل أصحاب الرسـول عليه الصلاة والسلام، فإنهـم رهبان في الليل فرسان في النهار، رضوان الله عليهم، وهنا قصيدة للمتنبي يقول:

أغالبُ فيكَ الشوقَ والشوقُ أغلبُ ... وأعجبُ منْ ذا الهجرِ والوصلُ أعجبُ
أمَا تغلطُ الأيـامُ فيّ بـأنْ أرَى ... عَـدُواً تنائِي أو حبِيباً تقربُ

ألا تخطـئ الأيام مرة واحدة فتقـرب لنا حبيبنا وتباعد عدونا، وهذا فيه من التشـاؤم؛ لأن الرجـل لا ينطلق من عبادة ولا ينطلق من خشيـة، هو عنده عبقرية متمـردة ثائرة، فهو دائماً يخاصـم الزمان والمكان، حتى انظـر سبحان الله من الطغيان اللفظي وجموح النفس يقول:

ومَـنْ عـرفَ الأيـامَ معـرفتِي بِهَا ... وبِالنَّاسِ روّى رمحَه غيرَ راحمِ

يقول: لو عرفتم الناس مثلما أعرفهم، لرويتم رماحكم من دمائهم.

وهذا خطأ واعتداء معارض للشرع، لكنه تمرد عبقري؛ لأنه يقول: ما أنصفه الناس وما أعطوه حقه.

وقبل هذا البيت يقول:

منَ الحلمِ أنْ تستخدمَ الجهلَ دونَه ... إذا كثرتْ فِي الحلمِ طرقُ المثالمِ
وأن تـردَ الـماءَ الـذِي نصفُـه دمٌ ... فتسقَى إذا لم يسقَ مَنْ لم يزاحمِ
فمَنْ عـرفَ الأيّـام معـرفتِي بها ... وبالنَّاسِ روّى رمحَه غيرَ راحمِ
فليسَ بمـرحـومٍ إذَا ظفـرُوا بـه ... ولا فِي القضَا الجارِي عليهم بآثمِ

يقول: والله لو ظفروا بك ما رحموك.

ومثل هذا نأخذ منه الفيوضـات البيانية والأدبية والفصاحة، ولكننا نحاكمه إلـى الشريعة التي تنهى عن قتل النفس المعصومة وعن سفك الدم وعن الاعتداء على الآخرين، فإنا نحكم بشريعة الله التي أنزلها على رسوله ﷺ.

ومن أبياته في القصيدة:

لحَى اللهُ ذي الدُّنْيا مناخاً لراكبٍ فكلُّ بَعيدِ الهمِّ فيها معذَّبُ

يقول: لا رد الله هذه الدنيا، ولا بارك فيها، كل إنسان ذو همة عالية معذب في هذه الدنيا، وهو صحيح، تجد من يطلب العلم ذا همة عالية يسهر ويتحسر إذا فاته وقت، والعابد إذا أخطأ وكذلك التقي إذا أذنب، وأيضاً من يريد المجد الدنيوي يأتيه دغلات، ويأتيه عثرات، ويأتيه ضربات، ويأتيه كلام من الحساد، ويأتيه تجريح، ويأتيه تهكم.

وهذا من قصيدته التي قالها في كافور، والتي يقول من بيتها الذي قصدنا شرحه في هذا الباب.

وكمْ لظلامِ الليلِ عندَك مِنْ يدٍ تحدِّثُ أنّ المانويةَ تكذِبُ

فالشعراء يذكرون الليالي؛ فأبو نواس يقول:

شكَونا إلَى أحبابِنا طولَ ليلِنا فقالُوا لنا: ما أقصرَ الليلَ عندنَا

لأن ليل المحب تراه يطول، الهاجر.. المشتاق.. المريض.. المهموم.. المكدر.. المحزون يطول ليله. ولما شكونا وقلنا لهم: لياليا طويلة، قالوا: أما نحن فما أقصر الليل عندنا، ما هو السبب؟

وذاكَ بأنَّ النومَ يغشَى عيونَهم يقيناً ولا يغشَى لنا النومُ أعينا

قال: لأنهم ناموا، فقصر عليهم الليل، ويقول بشار:

لَم يطلْ ليلِي ولكنْ لم أنمْ

يقول: الليل أصلاً ليس بطويل، ولكني لما سهرت صار طويلاً علي.

فتجد الإنسان إذا كان مريضاً طال الليل عليه، خاصة إذا ما كان يجيد فن العبادة، والأذكار، وتلاوة القرآن، حتى إن بعضهم الآن ما يدري ما يفعل في

الفـراغ، فتجده سهـران في لهو وفي عبـث، يقول: متى يصبح الصبــاح، يريد أن يجلس مع أصحابه ومع أحبابه، ولو عرف الكتاب والسنة والعلم والعبادة والسجود لله لقصر الليل عليه.

والمتنبي في نفس القصيدة هذه يقول من ضمنها ومن أبياتها الفريدة الرائعة:

كلُّ امـرئٍ يولِي الجميلَ محبَّبٌ ... وكـلُّ مكـانٍ ينبتُ العـزَّ طيبُ

يقول: كل إنسان يحسن فهو محبب إلى القلوب، مثلما قال أبو الفتح:

أحسِنْ إلى الناسِ تستعبدْ قلوبَهُمُ ... فطالمَا استعبدَ الإنسانَ إحسانُ

يـوم تحسن لإنسان تملك قلبه.. تملك مشاعـره.. تملك أحاسيسه.. تستولي علـى نفسه، حتـى يقول سبحانـه وهذا أجـل الـكلام: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة:٨٣]؛ لأنك إذا قلت للناس حسناً أطفأت العداوة، ويقول سبحانه: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت:٣٤].

فيقـول أبو الطيـب: كل من أعطى جميلاً فهو محبب عنـد الناس، لكن الذي يعطـي السوء فهو السيئ، السيئـة تدفع معك في القبر، ولكن الحسنة تجدها عند الله، وسبقــه أبـو بكر رضي الله عنه بأحسن وأروع وأجمل؛ فقد قام رجل يسب أبا بكر قال: والله لأسبنــك سباً يدخل معك قبرك، قـال أبو بكر: «يدخل معك قبرك ولا يدخل قبري»؛ لأن السوء الذي يقدمه الإنسان يدخل معه هو لا مع الآخر، حتى يقول ابن سعـدي شيخ ابـن عثيمين في رسالته فـي الوسائل المفيدة عـن الحياة السعيدة: اعلم أن الكلام الخبيث الذي يوجه لك يضر صاحبه الذي قاله ولا يضرك أبداً.

فـإنَّ الـذِي يـؤذِيـكَ مِـنْـه سماعُه ... وإنَّ الـذِي قـالُوا خلافَك لم يقلْ

يقول: إن الذي يولي الجميل من الكلمة الطيبة والفعل الجميل والخير وإسداء المعروف والوقفات العظيمة الجليلة مع الناس، فهذا محبب عند الناس.

وله فرائد في الحكم، ما سبق لها، يقول في بيت ثان:

وأظلمُ أهلِ الأرضِ مَنْ باتَ حاسداً لمَنْ باتَ في نعمائِه يتقلَّبُ

انظر الكلام، يقول: أظلم أهل الدنيا الذي يحسد إنساناً هو سبب لنعمته التي هو فيها، يعني: إنسان أسدى لك جميلاً ووقف معك ثم تحسده على ما أعطاه الله، يقول: أصلاً هذا الجميل الذي عندك هو من عنده فكيف تحسده؟! هذا الظلم.

وإنما قلنا هذا؛ لأننا أصلاً بدأنا بمسألة الليل؛ لأن البيت الأول هو:

وكمْ لظلامِ الليلِ عندَك مِنْ يدٍ تحدّثُ أنَّ المانويةَ تكذبُ

وفي سنن أبي داود يقول عليه الصلاة والسلام: «عليكم بالدلجة فإن الأرض تطوى في الليل» ولذلك يستحسن السفر بالليل، وهذا مجرب، يعني فضلاً من الله ﷻ كأن الأرض تخف على المسافر، النهار تبعد فيه المسافات، وفيه حرارة الشمس، لكن بالليل -بإذن الواحد الأحد- يكون السفر ميسراً، وهذا مجرب عند العقلاء، قال: «عليكم بالدلجة» الدلجة: هي السير في الليل، وقيل: هي آخر الليل، «فإن الأرض تطوى بالليل».

والله وصف عباده في الليل، فقال: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ [الذاريات:١٧] ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات:١٨] فليلهم أحسن ليل: يقومون.. يذكرون الله.. يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ [الفرقان:٦٤] فهؤلاء هم الأولياء ولو لم تصلّ إلا ركعتين، لكن تعلن الولاية له سبحانه وتعالى، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ [الذاريات:١٧] بعض المفسرين يقول: قليلاً يعني: أنهم يصلون قليلاً من الليل، وقال بعضهم: بل كانوا ينامون قليلاً ويصلون كثيراً، على اختلاف في التفسير، والآن الليالي تتعاقب على الناس، يقول العرب: الليالي أكثر من الأيام؛ لأنها هي المشهورات، لذلك تقدم الليالي على الأيام، قال سبحانه وتعالى:

﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر:١-٢] فقدم الليالي على الأيام؛ لأن ليلة اليوم تتقدم عليه.

علي بن جبلة العكوك هذا الشاعر المشهور، قوي في شعره وبديع، شعره كله نخب كما يقول الذهبي، قتله المأمون؛ لأنه مدح أبا دلف بقصيدة من سبعين بيتاً، هي سبعون بيتًا تخلع القلب إذا سمعتها، فلما مدح علي بن جبلة أبا دلف الأمير الكريم هذا، قال له أبو دلف: احتكم في ثلاث: إما أن تأخذ على كل بيت مئة ألف درهم- مثل مليون الآن-، أو أقاسمك حكم الإمارة الذي عندي، أو تحتكم أنت، قال: أعطني على كل بيت ألفاً، فأعطاه بالأكياس والقطم، لكن من يسمعها يفور دمه، أتى عنده قال:

دعْ جَدا قحطانَ أو مضرٍ ... في يمانيه وفي مضره

وامتدِحْ مِنْ وائلٍ رجلاً ... حجرُ الأيَّامِ في حجره

المنايَا في شدائده ... والعطايَا في شَبَا ظفره

إلى أن يقول:

إنَّما الدُّنْيا أبُو دلفٍ ... بينَ باديه ومحتضره

فَإذَا ولَّى أبُو دلفٍ ... ولَّتِ الدُّنْيا علَى أثره

كلُّ مَنْ في الأرضِ مِنْ عربٍ ... بينَ باديه إلى حضره

مستعيرٌ منكَ مكرمةً ... يكتسيها يومَ مفتخره

يقول: من يفتخر من العرب كلهم لا يفتخر إلا بك، ومن يريد شيئاً من المجد يجد شيئاً من مجدك، ونسي أن خليفة المسلمين ذاك المأمون العباسي، هذا أمير يراجع ذاك، ثم قال: تعالوا به، فأتوا به وقيدوه، والمأمون طبعاً أمام الرأي العام لن يقتله بحجة أنه مدح أبا دلف، فقال: أخرجوا لنا أبياتاً من ديوانه؛ الملفات

السابقة، يعني: ابحثوا لنا في الأدراج، قالوا: يا أمير المؤمنين، عنده بيتان طاغية في الشريعة والعلماء سيفتون بسفك دمه، قالوا: ما هما؟ أخرجوهما، قالوا: يقول لأبي دلف في قصيدة سابقة:

أنتَ الذِي تنزلُ الأيامُ منزلَهَا　　　وتنقلُ الدهرَ مِنْ حالٍ إلَى حالِ

كذاب عدو الله، الذي ينقل الدهر من حال إلى حال هو الله وحده.

وما قضيتَ بأقلامٍ مرتلةٍ　　　إلا قضيتَ بأرزاقٍ وآجالِ

من الذي يقضي الأرزاق والآجال إلا الله، ولو عفا عنه ولو استتابه لكان أحسن، فقتله، فالشاهد أنه يقول:

وأرَى الليالِي ما طوَتْ مِنْ قوّتِي　　　ردَّتْه فِي عظتِي وفِي إفهامِي

يقول: صحيح أننا ضعفنا وضعفت قوتي وبدأت أحدودب وبدأت أهزل، لكن زاد عقلي تجربة، لذلك تجد الشيخ الكبير جسمه ضعيف لكن عقله عقل نير مجرب، عنده حكم، وتجد الشاب أقوى شيء ولكن دماغه هايس، ما فيه شيء، فيه هوى، تجده يندفع مرة، أحياناً تجد في الشباب طيشاً وسفهاً، فهو يقول: الحمد لله، لو ضعفنا في أجسامنا استفدنا من الليالي التجربة؛ ولذلك تجد الشيخ الكبير وهو في الستين والسبعين معه عصا واحدودب، لكن عنده حكمة ونضوجاً، وتجد الشاب يسبق الريح، لكنه يتكلم سريعاً ويفعل سريعاً، وفيه طيش وفيه سفه وفيه اندفاع وفيه حدة إلا من رحم الله، يعني: بعض الشباب يكون أعقل، لكن يقول المتنبي:

وما الحَداثةُ مِنْ حلمٍ بمانعةٍ　　　قديوجدُ الحلمُ فِي الشبَّانِ والشِّيبِ

وهذا كلام عجيب، يقول: حداثة السن ما تمنع، فلما دخلت الوفود عند عمر بن عبد العزيز تكلم شاب، قال عمر بن عبد العزيز: اجلس أيها الغلام، في المسلمين من هو أولى منك - يعني: أكبر منك - قال: يا أمير المؤمنين،

لو كان الأمر بالسن لكان في المسلمين من هو أولى منك أنت، فتبسم عمر بن عبدالعزيز، وكان عمره في ذاك الوقت ثمانية وثلاثين عامًا وهو أمير المؤمنين، وكل الدول العربية والإسلامية هو أميرها، فتبسم.

وقال بعضهم:

تعلّمْ فليسَ المرءُ يولدُ عالماً ... وليسَ أخو علمٍ كمَنْ هوَ جاهلُ

وإنّ كبيرَ القومِ لا علمَ عندَه ... صغيرٌ إذا التفَتْ عليهِ المحافلُ

يقول أحد الشعراء:

تريدُ عجوزٌ أنْ تعودَ فتيةً ... وقدْ يبسَ الجنبانِ واحدودبَ الظهرُ

يقول: سنوات هدمت هذا الجسم، فهو صحيح أنه يتهدم الجسم، لكن التجربة تكبر والعقل ينمو والحكمة تزداد.

وعلى ذكر الليالي عند المسلمين، يقول أبو بكر: لي ثلاث ليال: ليلة الغار مع الرسول عليه الصلاة والسلام، وليلة الهجرة، وليلة بدر: ليلة الغار يوم بات مع رسول الله ﷺ، قال له: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، وليلة الهجرة يوم هاجر مع رسول الله ﷺ مرة على اليمين، ومرة على الشمال، ومرة قبله، وليلة العريش في بدر، هذه ثلاث ليالٍ، ويقول الشريف الرضي:

مشروفةٌ بخلافٍ لو أقُولُ لها: ... يومَ الغديرِ لقالَتْ: ليلةَ الغارِ

ومن الليالي العظيمة في الإسلام ليلة الأحزاب، وهذه ليلة ما أشد منها على المسلمين على الإطلاق، تكاتفت الأحزاب من المشركين وغطفان وبعض قبائل العرب واليهود وتحزبوا كلهم ضد رسول الله عليه الصلاة والسلام، وحاصروا المسلمين في المدينة وطوقوا المدينة من كل الجهات، فأمر ﷺ بحفر الخندق والمشورة من سلمان الفارسي، وضاقت الدنيا: ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ

وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾[الأحزاب:١٠] ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب:١١] يا لها من ليلة وعاصفة! وأتى من الهم والغم والكدر، وجاء الصحابة وجاءت ريح شديدة وأتى ﷺ يحفر الخندق مع الصحابة فعرضت لهم صخرة كبيرة، فأخذ ﷺ المعول فبرق بارق في الجو قال: «**أريت قصور كسرى وقيصر وسوف يفتحها الله علي**» قال كبار المؤمنين: صدق الله ورسوله: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٢٢] هذا في سورة الأحزاب، فضرب ﷺ الضربة الثانية فبرق بارق فقال: «**أريت كنز كسرى الأبيضان والأحمران وسوف يفتحهما الله علي**» أما المنافقون فقالوا: ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب:١٢] قالوا: كلمات، فخيب الله سعيهم، ونصر الله رسوله ﷺ.

الشاهد: قبل أن ينجلي الكرب قال رسول الله ﷺ: «**من يذهب إلى القوم يأتيني بخبرهم؟**» الليل ظلام وبرده قارس، يقول حذيفة رضي الله عنه: «**والله إن الإنسان يمد يده ما يراها**».

قال: «**من يأتيني بخبر القوم؟**» يقول ﷺ، واحد منكم يتبرع، فجلس الأبطال: جوع وتعب وسهر وإعياء وخوف وظلام ما ترى الطريق أصلاً، قال: «**من يأتيني بخبر القوم وله الجنة؟ قال حذيفة: أنا**»، (له الجنة) ضمان من محمد ﷺ، قال: فمشيت مرة أطيح، يعني: يطيح في الأرض يمشي، مرة يسير ومرة يقعد ومرة يحبو ومرة يقوم، ويوم وصل عند المشركين؛ لكي يأخذ الخبر، قال: فجلست بينهم، فقال أبو سفيان قائد المشركين: ليتعرف كل منكم إلى من بجانبه، فإنا لا نأمن من محمد أن يرسل هذه الليلة من يأخذ خبرنا، قال: فبدأت أنا بالذي جنبي قبل أن يبدأ، قلت: من أنت؟ قال: فلان، قال: وسكتّ، ومن أنت؟ قال: فلان، لكي لا يبدأ هو بالسؤال، انظر الذكاء، قال: فرأيتهم فأرسل الله عليهم الريح الذي ذكر في القرآن، قال: والله ما تركت قدراً إلا أطاحت به، وقلعت الخيام، قال سبحانه:

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب:٩]، فنصرهم الله وحاز حذيفة في تلك الليلة جنات النعيم من وعد محمد عليه الصلاة والسلام.

فهذه ليلة الأحزاب إذا ذكرت هذه من أدهى الليالي، ويقول: عدت وإذا رسول الله ﷺ يصلي في الليل وعليه شملة ﷺ فدخلت وأخبرته فدعا لي، يصلي في الليل ﷺ مع السهر والجوع، فهذه ليلة الأحزاب.

يا ليلةَ الجزعِ هلاَّ عدتِ ثانيةً ... سَقَى زمانَك هطالٌ مِنَ الدِّيَمِ

مقابلة مع المتنبي

أبـو الطيب المتنبي الشاعـر المشهور شاعر الحكمة والإبداع والفصاحة اتخذ مكاناً عند أهل العلـم وأهل الفهم وأهـل التجربة وأهل الخطابة، حتى صار هو بحـق الأول عند كثير من النقاد في عالـم الأدب، ونحن ندرس مثل هذه الشخصيات؛ حتـى نستفيـد من أدبهـم، ونستفيد مـن حكمهم فتوظف في خدمـة الرسالة الخالـدة، توظف في الإقنـاع، توظف فـي نشـر الفضيلة؛ لأنـه أحياناً يجمـع لـك كلامـاً كثيـراً في بيـت واحد، ثـم إن المنظـوم يسري فـي الناس، وقد صـح عنه عليه

الصلاة والسلام أنه قال: «**إن من البيان لسحراً وإن من الشعر لحكمة**»، وكان- بأبي هو وأمي ﷺ- يسمع الشعر ويستنشد حسان، ولما ركب معه أحد بني ثقيف قال ﷺ -كما في صحيح مسلم-: «**هل تحفظ لأمية شعراً**» فأنشده مئة بيت والرسول ﷺ يقول عند كل بيت: «هيه هيه» فنحن نأتي إلى هذا الرجل نقصد حكمه ونقصد إبداعه، فلذلك نسأله وهو يجيبنا.

سؤال: ما هي حقيقة الأمن والخوف؟

يقول هو:

ومَا الخوفُ إلا ما تخوَّفَه الفتَى ومَا الأمنُ إلا ما رآه الفتَى أمْنَا

معنى الكلام: إن الخوف هو الذي تعيشه أنت وتعتقد أنه خوف ولو لم يكن مخوفاً، فإنه يكفي اعتقادك وخوفك من الشيء أنه قد وقع بك الخوف، أحياناً أمور عند بعض الناس لا تخوف، لكنه هو يعيش الخوف، إذاً فهو خائف، بغض النظر عن الأمر الذي يعيشه أمخوف هو أو لا؟ ولذلك بعض الناس تجده في همّ من أشياء يتوقع أنها سوف تقع وهي أصلاً قد لا تقع، فيقول له الناس: أنت ماكث في خوف أصلاً؟ بينما هو خائف، إذاً فهو يعيش الخوف.

وتعيش آمناً مستقراً وأنت في عين العاصفة وأنت في أزمة وأنت في كرب فما دمت آمناً فهذا الأمن، باختصار: ليس الأمن أن تتجرد من كل المزعجات حولك ومن كل كربات قد تكون فيها ولكنك آمن، إذاً فأنت آمن، وليس الخوف أن يكون عندك مشكلة أحياناً أو يكون شيء مخوف، لا، أو ليس عدم الخوف أن يكون عندك مشكلة، هو الشعور الذي تعتقده أنت، الآن كثير من المحزونين تراه محزوناً وعنده أسباب السعادة، فنقول هو ذا محزون، وإذا قلت: هو مسرور لأن عنده مالاً وعنده أبناء وهو صحيح ومعافى، نقول: لا، هو يعيش الحزن، ما الفائدة من هذا؟ فهو في عين العاصفة، والخوف والرجاء، قال بعضهم:

وأحلى الهوى ما شكَّ في الوصلِ ربُّه　　　وفي الهجرِ فهو الدهرَ يرجُو ويتقِي

يقـول: أحسن الهوى أن تشك في الوصل؛ لأنك ما تدري هل تستمر المحبة أو تنقطـع، ترجو وتتقي وتخاف؛ لأنـك إذا أمنت انقطع عنك محبوبك انقطع تماماً، فـلا تتعلق به، سلـوت عنه، وإذا اقترب منـك وتملكته ما تجد عنـدك شوقاً، لكن أحسن شـيء أنه بعيد قريب تخاف من الوصل وترجو اللقاء، فهو دارس لنفسيات الناس يأتي بحكمة.

ولذلـك بنى الله سبحانـه وتعالى الأمر علـى الخوف والرجاء منـه سبحانه وتعالـى فـلا ييأس مـن روح الله إلا القـوم الكافرون، ولا يأمن مكـر الله إلا القوم الخاسرون، فلا تأمن مكره، ولا تيأس من روحه سبحانه وتعالى، فكن بين الرجاء وبين الخوف، وهو أتى بها في حب البشر فكيف بحب رب البشر سبحانه وتعالى.

السـؤال: ما بال الدهر يبقى ويبلى الإنسان؟ الأيـام متجددة والناس يموتون قرنـاً بعد قرن، يذهـب الوجهاء، يذهب الناس جميعاً: الشبـاب والكبار والصغار والرجال والنساء، قال:

إذَا ما لبستَ الدهرَ مستمتِعاً بهِ　　　تخرّقتَ والملبوسُ لم يتخرّقِ

أنت لبسـت الأيام تستمتع بها. لبست الدهر والأيـام كأنها لباس عليك، أنت تفنـى ويذوب جسمك، أما الملبوس عليك فباقٍ كما هـو، انظر: أفنت الأيام بإذن الواحـد الأحد الأجيال الأولى والقـرون السابقة ولم يبقَ إلا الليل والنهار، الشمس تطلـع علينا كل يوم، ذهب عـاد وثمود وقرون بين ذلك كثيـراً والملوك والجبابرة والأكاسـرة والأغنياء والأثريـاء والحكماء والشعراء والأدبـاء كلهم ذهبوا، وتطلع الشمس، يقول الصلتان السعدي:

أشـابَ الصغيرَ وأفنَى الكبِير　　　كـرُّ الـغـداةِ ومـرُّ العَشـي

إذا ليلةٌ هرمتْ يومُها	أتى بعدَ ذلكَ يومٌ فتي
نروحُ ونغدُو لحاجاتِنا	وحاجةُ مَنْ عاشَ لا تنقضِي
تموتُ معَ المرءِ حاجاتُه	وتبقَى له حاجةٌ ما بقِي

سبحان الله! اليوم يبقى نشيطاً، كل يوم تطلع الشمس، كأنه أول يوم والأجيال يموتون والناس يزحفون إلى المقابر.

السؤال: يحاول الإنسان كتم مشاعره فما يستطيع؟ فأحياناً تريد أن تضغط على نفسك ما تظهر السرور في بعض المواقف ولا تظهر الحزن ولا تظهر الفرح، تحاول، لكن مهما حاولت يغلب عليك الأمر، تحاول أحياناً عند الجزع والفراق أن تكتم دموعك، قال هو:

بادٍ هواكَ صبرْتَ أَمْ لَمْ تصبِرَا	وبكاكَ إذا لم يجرِ دمعُك أو جرَى

يقول: أنت تحاول، لكن ما يستطيع الإنسان كبت مشاعره وعواطفه؛ تظهر في عيونه.. تظهر في خلجاته.. تظهر في التفاتاته.. تظهر في تحركاته.. تظهر في لحظاته.. تظهر في تصرفاته، ما تستطيع، مهما كان، وهذه في قصيدته التي مدح بها ابن العميد الكاتب المشهور التي يقول فيها:

مَنْ مخبرُ الأعرابِ أنّي بعدَهم	جالستُ جَالنيوسَ والإسْكَنْدَرا
ودرستُ بطليموسَ دارِس كتبِه	متبدِّياً متعلِّماً متحضِّرا
قطفَ الرجالُ القولَ قبلَ نباتِه	وقطفتَ أنتَ القولَ لما نوَّرا

وهي من أحسن قصائده، لكن الشاهد: إنك ما تستطيع أن تكتم مشاعرك، لا بد ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد:٣٠] كما قال سبحانه وتعالى.

السؤال: بعضهم يضع من شأن علماء الإسلام، والرموز والأخيار والأبرار، فقال يرد المتنبي:

مَنْ كانَ فوقَ محلِّ الشمسِ موضعُهُ فليسَ يرفعُه شيءٌ ولا يضعُ

إذا بلغ الإنسان من المنزلة مثل فوق الشمس، فهذا لا يستطع أحد أن يرفعه فوق، فليس هناك أرفع، ولا تستطيع أن تخفضه؛ لأنه وصل وأصبح فوق بساط الشمس.

يقول زهير في أبناء هرم:

لو كانَ يقعدُ فوقَ الشمسِ مِنْ كرمٍ قومٌ بآبائِهِمْ أو مجدِهم قعدُوا

لو كان هناك مقعد يستحقه بعض الناس بكرمه ومجده وسؤدده لجلس أبناء هرم بن سنان هناك، فيقول المتنبي: إذا ارتفع الإنسان وصار ذا مكانة اجتماعية قوية وأسس ذلك بأخلاق نبيلة وسيرة محمودة عطرة وثناء جميل ومواهب ربانية فلا يزيده القدح إلا رفعة ولا يزيده كلام الحساد إلا مجداً، فلا يضعه أحد، ولا يستطيع رفعه؛ لأنه أخذ من المكانة ما لا توصف.

السؤال: ما وصف من أراد العليا؟ ما هي صفاته؟ ما هي بطاقته الشخصية؟ ما هي الأمور التي يقوم بها؟

فيذكر هو أن من صفاته:

كثيرٌ سهادُ العينِ مِنْ غيرِ علَّةٍ يؤرِّقُه فيمَا يشرفُه الفكرُ

يقول: إن النابه الذي يريد عمل الآخرة، حتى المجد الدنيوي تجده كثير السهر، ما تجده يستولي عليه النوم في الليل والنهار، إنما ينام مثل نوم الذئب، فهو دائماً عنده تحرك وتوقد ذهني، يتفكر في المعلومات، يفكر في القراءة، يفكر كيف يصلح بين الناس، يفكر كيف يكون له ثناء حسن، يفكر كيف يكون له ثروة ينفع بها ويتصدق بها، ويصل قرابته، (كثيرٌ سهادُ العينِ) يعني: السهر، (مِنْ غيرِ علَّةٍ) ليس بمريض، لكنه سبحان الله كأنه ثعبان في منامه، ليس كبعضهم ينام، وينام عن الصلاة، وينام عن القراءة، وينام عن النفع، وإذا جلس يسمر

جلس ست ساعات وكله ضحك ليل نهار، ولا دمعت عينه، ولا قرأ آية، ولا تدبر موعظة، ولا يفكر في لقاء الواحد الأحد، ولا في صلة الرحم، ولا في نفع العالم، هذا هامد ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ [النحل:٢١] جثة، ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل:٢١]، وذاك يختلف عنه.

وفد بنو عامر بن صعصعة إلى النعمان بن المنذر، وكان معهم الشاعر المشهور لبيد بن ربيعة، وهو شاب صغير، فلما صلوا إلى هناك ولهم خصم عبسي اسمه ربيعة بن زياد؛ لأن عبسًا قبيلة لا تريد السؤدد لبني عامر بن صعصعة، فقالوا للنعمان بن المنذر: ائذن لوفود العرب إلا وفد عامر بن صعصعة الذي منهم لبيد الشاعر الشاب، فأتى سادتهم ولبيد كان يرعى الإبل؛ لأنه صغير ما يدخل مع الوفد، وكان النعمان بن المنذر قد بسط خياماً في الصحراء في يوم الربيع، فدخلت الوفود إلا وفد عامر بن صعصعة ردهم، قال: ليس لكم قبول عندي؛ لأنه وشى بهم عنده وزير من قبيلة أخرى، فرجعوا مهمومين متأسفين، فقال لبيد: ما لكم؟ قالوا: ردنا من عند الباب، وشى بنا الربيع بن زياد العبسي قال: دعوني، أنا أذهب معكم غداً وأدخل على الملك وأتركه يرحب بكم، قالوا: نحن عجزنا ونحن سادة كبار، وأنت شاب صغير ترعى الإبل، قال: لا، دعوني أنا عندي كلام لو قلته ليدخلنكم النعمان، قالوا: ننتظر لغد إن شاء الله، ننظر هذه الليلة ونعطيك خبراً، فقال سيدهم سيد القبيلة: انظروا له في الليل، إن كان نام في الليل ولا يتحرك، فليس بصاحبنا ولن يذهب معنا، وإن رأيتموه كأنه الثعبان يتقلب على الرمضاء فهو صاحبنا، فأتوا وناموا وجعلوا واحداً يراقبه وهو شاب صغير لا زال غلاماً، فكان يتقلب على جنبه الأيسر ثم إلى الأيمن ثم من الأيمن إلى الأيسر ثم الأيسر كأنه ثعبان في الليل، إلى أن طلع الفجر، فأخبروا سيدهم، قال: والله ما نام وإنه يتقلب تقلباً كأنه ثعبان على الرمضاء في شدة القيظ، قال: هذا صاحبنا، قال: صف لي هذه النبتة؟ نبتة صغيرة؛ لكي ينظر فصاحته، قال:

هذه جسم هزيل، ومطلع ضئيل، ولكن المنظر جميل. بسرعة كلام مثل المواسي، قال: تذهب معنا. فأصلحوا من شأنه ووضعوا له عمامة وألبسوه، شاب صغير لبيد بن ربيعة ولما دخل أول شيء في المهرجان عند النعمان بن المنذر والوزراء ووجوه العرب موجودون، فأدخلوه فلما انتصب قبل النعمان بن المنذر، قال:

أكُلَّ يومٍ لِمَّتي مقزَّعَةْ إنَّ بعيدَ الضيقِ يأتيكَ السَّعَةْ
نحنُ بنُو أمُّ البنينَ الأربعَةْ ومنْ خيارِ عامرِ بنِ صعصعَةْ
المطعمونَ الجفنةَ المُدْعدعَةْ والضاربونَ الهامَ تحتَ الخيضعَةْ

الجفنة الكبيرة، يطعمون. (مدعدعة) يعني: باللحم والثريد، يقول: نحن كرماء. وإذا التقينا بالأعداء وصار الصوت والوليل نضرب الهام والرؤوس، ثم جاء بسبب مقذع في الربيع بن زياد، سب ما يدخل البيوت في الوزير هذا الذي وشى بهم.

فالملك قال: أدخلوا وفد عامر بن صعصعة واطردوا هذا الوزير. والله ما تأكل معي بعدها، والله ما تواطئني، فصار هو شاعرهم وصار خطيبهم بسبب هذه الحادثة.

فقصدي قول المتنبي:

كثيرٌ سهادُ العينِ مِنْ غيرِ علّةٍ يؤرّقه فيما يشرّفُه الفِكْرُ

في الليل يتفكر دائماً في الخطابة. يتفكر كيف يقرأ، يتفكر في المسألة العلمية.

الشافعي نام عند الإمام أحمد إلى الفجر وأخذ يتقلب والإمام أحمد وضع له إناء على مذهب العلماء في قيام الثلث الأخير في السحر وإرسال سهام الدعاء في مناجاة ملك الملوك إذا نزل نزولاً يليق بجلاله سبحانه وتعالى فيقول، في الثلث الأخير: «هل من سائل فأعطيه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من داعٍ فأجيبه؟»

فالإمام أحمد مضيف صاحب البيت وضع إبريقاً وإناء ليتوضأ، ولما جاء الفجر وإذا الماء بحاله، قال: سبحان الله! قال: أنت قمت ونمت، أما أنا فما نمت أبداً، لقد فكرت في خمسين مسألة وأنا مستلقٍ على ظهري وأجبت عنها والحمد لله، فكان في عبادة وفي علم وهذا الذي يؤرقه فيما يشرفه الفكر، يتفكر في معالي الأمور، يتفكر فيما يقربه من الله ويجعل له مكانه.

نعود إلى المتنبي ونسأله: هل يهرب من الموت؟ الناس قاموا بالحيل في الهروب من الموت، العلاج والدواء والدعاء بطول العمر وأخذوا يهربون من الأزمات والمشكلات والأوبئة، فنسأل المتنبي: هل يستطيع الإنسان أن يهرب من الموت؟ والقرآن أجاب أحسن جواب في ذلك: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ [الجمعة:٨]، الذي يفر من الشيء أين يكون الشيء؟ وراءه خلفه، قال: ﴿فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ [الجمعة:٨] يقول: إنه قبلكم، أنتم تفرون منه وأنتم تلقونه.

قال: (نعد المشرفية): السيوف (والعوالي) والرماح. (وتقتلنا المنون بلا قتال).

يقول: نحن مستعدون أصلاً، حتى الأعداء نستعد لهم بالسيوف والرماح العوالي، لكن المشكلة أن الموت يدخل علينا ويقتلنا بلا قتال، فما نستطيع دفعه، يعني: أنت تجهز الجيش الجرار والحرس والعسكر والجنود وتتخذ الاحتياطات الأمنية وتحاول أن تدافع عن الملك، ثم يأتيك ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء:٧٨] يأتيك وأنت تشرب الشاي، وأنت جالس، وأنت في الطائرة، وأنت في السيارة، وأنت مستلقٍ، في أي مكان إذا حانت الوفاة قطفت الروح، فيقول: (**وتقتلنا المنون بلا قتال**) ما نقاتلها تصرعنا وتأخذنا.

وبعضهم لا يرضى إلا بالمحل العالي، بعض الناس همته عالية لا يريد في العبادة إلا أجودها وأحسنها وفي العلم أرقاه، وفي العمل الصالح، وفي الكرم،

وفي العطية، وفي البذل والتضحية يريد أن يكون هو المذكور والمصدر والمتوج دائماً لهمته العالية، كما قال:

علَى قدرِ أهلِ العزمِ تأتِي العزائمُ وتأتِي علَى قدرِ الكرامِ المكارمُ

فأنت بعزيمتك وبهمتك يعطيك الله مثلما تمنيت؛ لأن الذي يريد معالي الأمور همته عالية؛ ولذلك لاحظ أنت الذي يريد الصف الأول دائماً تجد أنه يعرف عند الناس صاحب الصلاة، صاحب الصف الأول، فيوفقه الله للنوافل ويفتح عليه سبحانه وتعالى في أموره، ويسهل له، تجد الذي يحفظ كل القرآن، ليس كالذي يحفظ بعضه، الذي يطلب العلم والقراءة تجد عنده من الفهم وتصور الأمور، الذي يريد أن يعطي لا يأخذ، تجد الناس يثنون عليه ويعطونه ويبذلون الثناء له، كما بذل ماله لهم، فهذا هو الذي يقصد هنا.

قلنا: فما رأيك في الحمى؟ هو أصابته الحمى ووعكته، والمرض يقدره الله سبحانه وتعالى على من يشاء من عباده، وفي المرض يتجرد الإنسان من زخرف الحياة ومن زهوها، حتى يقول الشهرزوري لما زار محبوبه، فقال:

مرِضَ الحبيبُ فزرتُه فمرضتُ مِنْ خوفِي علَيه
وأتَى الحبيبُ يزورُني فشفيتُ من نظرِي إلَيه

يقول: لما مرض وذهبت إليه خفت من المرض، لما رأيته مرضت من خوفي عليه، فأصابني المرض، ولما أتاني ورأيت طلعته البهية تشافيت من المرض الذي كان بي، وهنا يقول المتنبي:

وزائرتِي كأنَّ بها حياءً فليسَ تزورُ إلا فِي الظلاَمِ

يقول: الحمى هذه الزائرة ما تأتي في الغالب إلا في الليل، يقول: سبحان الله تتركني في النهار، فكأنها مستحية ما تزورني إلا في الليل، فإذا أنست في الفراش أتت فوعكتني، يقول:

(**بذلتُ لها المطارفَ والحشَايا**) يقول: قربت لها الفرش والكنب والبسط الوثيرة.

(**فعافَتْها وباتَتْ في عظامي**) قلت: تفضلي اجلسي. وهذا من تصويره ومن دقته ومن خياله ومن ريشته المعبرة، يقول: إنها تأتي الحمى الزائرة هذه، فأريد أن تجلس وأن تتفضل بالجلوس على المطارف، وعلى الزرابي المبثوثة، وعلى البسط فعافتها وباتت في عظامي، مباشرة في العظام، يقول:

بذلتُ لهَا المطارِفَ والحشَايا ... فعافَتْها وباتَتْ فِي عظامِي

أبنتَ الدهرِ عندِي كلُّ بنتٍ ... فكيفَ وصلْتِ أنتِ منَ الزِّحامِ

يقول: أنت مصيبة يا بنت الدهر، وعندي مصائب كيف استطعت أن تدخلي من كثرة المصائب التي في، تجدين من الزحام طريقاً إلي، فعندي مصيبة الهجر والفقر والغربة والضنا وحسد الحساد والأزمات والمكائد، وأنا قلت له: لو أنه اتصل بالواحد الأحد لكان كفاه، ولذلك إذا كثرت عليك الأمور فارفع اليدين واسأل الواحد الأحد وسوف يكفيك في كل شيء، لا يوجد كفاية إلا معه سبحانه وتعالى، لا عيش إلا معه سبحانه وتعالى، ولا حياة ولا أمن ولا استقرار، ولذلك هؤلاء الشعراء والأئمة ما تنكر أن عندهم عبقرية وعندهم حكمة، لكن عندهم من التمزق والقلق والاضطراب والهم والغم، بخلاف أهل الرضا وأهل الاطمئنان وأهل السكينة وأهل الطمأنينة، مع طاعة الباري سبحانه وتعالى والأنس بقربه جل في علاه.

فمثل شيخ الإسلام ابن تيمية اجتمعت عليه الدنيا تحاربه وضع في السجن، أغلقوا الباب من الحديد والسجان من ورائه فتبسم شيخ الإسلام بصدر رحب وثقة في الله وتوكل عليه وتفويض الأمر إليه سبحانه قال، وهو ينظر إلى السجان وهم يردون الباب، وقال: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ﴾ [الحديد:١٣] عنده يعني ﴿وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد:١٣] يقول: تركنا العذاب والمشكلات والشقاء لكم في الدنيا، الرحمة هنا في الزنزانة، الرحمة ما دام أنك مع الواحد

الأحد، مع ذكره، مع طاعته، مع عبادته، مع الاتصال به، فأنت في أحسن حال وفي أحسن مقام، ثم قال بقلب المؤمن الواثق بموعود الله: ماذا يفعل أعدائي بي، أنا جنتي وبستاني في صدري- جنة الذكر والطاعة والعبادة وحفظ القرآن وصلاة الليل والرضا بموعود الله سبحانه وتعالى وحب الخير للناس- أنا جنتي وبستاني- انظر التصوير الدقيق؛ ولذلك يعدونها من أجمل المقطوعات الأدبية التي قالها ابن تيمية- أنا جنتي وبستاني في صدري أنى سرت فهي معي، العلم والحكمة والبيان والفقه، حتى يقول الشافعي:

علمِي معِي حيثُما يممتُ يتبعُنِي ... قلبِي وعاءٌ لهُ لا بطنَ صندوقِ

ليس عندي مكتبة محفوظة مثل المكاتب.

إن كنتُ فِي البيتِ كانَ العلمُ فِيه معِي ... أو كنتُ فِي السوقِ كانَ العلمُ فِي السوقِ

فيقول ابن تيمية: أنا جنتي وبستاني في صدري، أنى سرت فهي معي، أنا قتلي شهادة. إن قتلوني فأنا شهيد؛ لأنه يرفع لا إله إلا الله علم التوحيد، يدعو إلى الرسالة الخالدة، يدعو إلى المبدأ الحق؛ لتكون كلمة الله هي العليا، أن يكون الدين كله لله، ابن تيمية لم يطلب منصباً ولا حكماً ولا ثروة ولا داراً ولا قبيلة ولا دافع لقطعة أرض، وإنما لمنهج الله في الأرض؛ ليقيم الحق والإيمان والعدل ورسالة سيد الخلق ﷺ.

أنا قتلي شهادة وإخراجي من بلدي سياحة، وإذا نفوني وطردوني من الوطن وكتبوا علي بالنفي الإجباري، فأنا سوف أسيح في الأرض، أطالع في الكون في كتاب الكون المفتوح.

وفِي كلِّ شيءٍ لَه آيةٌ ... تدلُّ علَى أنَّه الواحِدُ

أتفكر في الجبال وفي السماء وفي النجوم وفي الحدائق وفي السهول، يقول إيليا أبو ماضي:

وكتابُ الفضاءِ أقرأُ فيه صُوراً ما قرأتُها في كتابِ

سوف أطالع في الكون في حروف القدرة وفي أسطر الوحدانية وفي جمل الصمدانية، والله يكتب ببديع صنعه في الخلق، ويقول للناس: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ [لقمان:١١].

قال: وسجني خلوة، قال: وإن سجنوني في الزنزانة فسوف أختلي، أسجد وأتعبد وأتفرغ للطاعة وأذكر الله وأتوب وأتهجد وأصوم وأتلو القرآن بتدبر، وأطلب العلم، وأكتب وأؤلف، هذا ملخص ابن تيمية في حياته، فانظر إليه حتى مرض في السجن وزاره أصدقاؤه، فقالوا: السلام عليكم يا أبا العباس، سلامات ما ترى بأسًا، بارك الله فيك، ولكن عسى لا يوجد خلاف، ماذا تحس به؟ قال بيتين من شعر لشاعر قديم:

تموتُ النُّفوسُ بأوصابِها ولَم يدرِ عُوّادُها ما بِها

تموت بأمراضها، وما درى الناس بها.

وما أنصفَتْ مهجةٌ تشتكي أذاهَا إلَى غيرِ أحْبابِها

يقول: والله ما أنصفنا إن كنا نشكو إليكم ماذا تجني إن اشتكيت إلى إنسان فقير معدم، والإنسان مهما بلغ سؤدده لا يستطيع أن يدفع عن نفسه الزكام لو ملك الدنيا كلها، قال: ما نشكو إلا إلى ربنا سبحانه وتعالى، فانظر لحياة أحمد بن تيمية، وهو صاحب شريعة، صاحب كتاب وسنة، وأحمد المتنبي عبقري بلا شك وصاحب حكمة، لكنه ممزق يريد الدنيا، يريد الشهرة يريد الإمارة، يريد الحكم، يريد المنصب، يريد البهرج، ولذلك تجد في مدحه طغياناً لافتاً، ويتجاوز في ذمه تجاوزاً مهلكاً، فهذا كلامه في الحمى.

قلنا له: ما رأيك في الفراق؟ فراق الأحبة، البعد عن الأحباب والأصحاب، قال:

لولا مفارقةُ الأحبابِ ماوجدَتْ لها المنايَا إلى أرواحِنا سُبُلاَ

انظر المبالغة في الوصف، لو لم نفارق ما كان الموت اهتدى لأرواحنا ولا وجد طريقاً يقصف أرواحنا، فالفراق هو الذي علم الموت الطرق إلى أرواحنا، فعند الفراق نموت، تجد الفراق هذا من أصعب ما يكون، ولذلك له في الفراقيات كلام يقول فيه:

فِراقٌ ومَنْ فارقتُ غيرَ مذمَّمٍ وأَمٌ ومَنْ يممْتُ خيرُ ميمَّمِ

ويقول

يا مَنْ يعزُّ علَينا أَنْ نفارِقَهم وجدانُنا كلَّ شيءٍ بعدَكم عَدمُ

ويقول الأندلسي ابن خفاجة.

إنَّ يومَ الفراقِ أصعبُ يومِ ليتنِي متُّ قبلَ يومِ الفراقِ

قلت: صف لنا نفسك؟ في الوفاء وفي مكارم الخلق وفي التواضع، ما هي الخصلة التي فيك؟ قال:

خلقتُ ألوفاً لو رجعتُ إلىَ الصِّبا لفارقتُ شيبِي موجعَ القلبِ باكِيَا

يقول: من عادتي أني ألوف وآلف، آلف وأؤلف، عندي وفاء، كل يمدح نفسه، لكن انظر التصوير عنده.

يقول: أنا من عادتي أني ألوف، حتى الصبا الذي يتمناه الإنسان لو شخت أنا وشبت وفارقت الشيب الذي في، وأرجع إلى حياة أحسن لبكيت على الشيب المكروه الممقوت، فكيف لو كنت مفارِقًا شيئًا أسوأ إلى شيء أحسن؟! فأنا في شيبي وقد شاب رأسي لو فارقت هذا الشيب، مع العلم أنه ثقيل الشيب على الناس وعلى المحبين، ورجعت إلى الصبا الذي هو أحسن عمر، وهو عمر الشباب، وعمر القوة، والفتوة؛ بكيت على الشيب؛ لأني ألفت الشيخوخة وألفت سن الهرم، فلذلك يبكي

عليـه، فارقته موجع القلـب باكياً، فأنا ألـوف مع أحبابي إذا فارقتهـم بكيت، أحن لهـم، أحن لأيامهم، أنا وفيٌّ، كل يصف نفسـه، وإلا فهو خرج من عند سيف الدولة وأعطاه، وذهب إلى كافور ومدحه ثم ذمه، مرة يمدح إنساناً ومرة يهجوه.. وهكذا.

قلنا له: بعض الناس يخشع ظاهره فحسب. قال هو:

وإطراقُ طرفِ العينِ ليسَ بنافعٍ إذا كانَ طرفُ القلبِ ليسَ بمطرقِ

يقـول: إن المقصـود هـو القلب، بعض الناس يظهـر الخشـوع، يظهر عليه سيمـاء الخشوع والتباكي، قلبه في شعاب الدنيا، قلبه يحب الانحراف والشهوات، فيقـول المتنبـي: ترى إطراق العين وهذه الحركات الظاهـرة ما تنفع، إذا ما كان الخشـوع قلبيـاً والإيمان داخلياً فـي القلب وفي النفس، وإلا فبعض الناس يطرق بعينـه، وبعضهم قد يجامل ويبكي، ولكنه لا يتورع عن الحرام، وأكل أموال الناس، وغشـ الناس، وأذية الناس، والظلم، فهذا مـا ينفعه، يقول: فكما أن طرف العين مطـرق فلا بد أن يكون القلب راضياً ساكنـاً خاشعاً مخبتاً بالطاعة؛ لأنه كما قال سيـد الخلـق ﷺ فيما صح عنـه: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**» فالقلب محل نظر الرب سبحانـه، فإذا كان القلب مطرقاً خاشعاً منيباً ظهـرت على الجوارح، أما التكلف الظاهـري الذي يفعله بعض المنافقين تجده يتخشع ويتباكى، بينما في قلبه سعار المعصية يريد الانحراف والغش والظلم> فما يجدي.

قلنا: هل للموت من طبيب؟ هل نستطيع أن نأتي بطب يدفع الموت؟

قال:

وقـدْ فـارقَ النـاسُ الأحبـةَ قبلَنا وأعيَـا دواءُ المـوتِ كلَّ طبيـبِ

يقـول: الأحبة قبلنا مثلما فارقنا حبيبنـا قد فارقوا أحبابهم، كم تعلقوا بهم، وهذا داء الموت أعيا كل طبيب، كم من طبيب أراد أن يكتشف دواء يدفع الموت فما

استطاع، لا ابن سينا ولا أبو بكر الرازي ولا جالينيوس ولا بقراط ولا غيرهم من أطباء العالم، حاولت الدول، حاولت الشركات والمؤسسات والمنظمات والهيئات الصحية العالمية، فما استطاعوا، لا بد ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر:٣٠].

وقدْ فارقَ الناسُ الأحبةَ قبلَنا وأعيَا دواءُ الموتِ كلَّ طبيبِ

سؤال: ماذا قلت لسيف الدولة لما أصابته الحمى؟

بإمكان الإنسان العادي أن يصل إلى ملك من الملوك أو إلى عالم أو إلى فاضل من الفاضلين أو إلى أحد الأعيان فيقول: لا بأس عليك، وأتيناك وقد حزنا لما مرضت، لكنه يختصر المعاني، أتى إلى سيف الدولة ووجده مريضاً، فقال:

المجدُ عوفِي إذْ عوفيتَ والكرمُ وزالَ عنكَ إلى أعدائِك الألمُ

وما أخصُّك فِي برءٍ بتهنئةٍ إذا سلمتَ فكلُّ الناسِ قَدْ سلمُوا

فهذان البيتان يختصران لك مسافة من الكلام، وكماً هائلاً من الحديث، فهو يجمع لك من الحكمة والرصانة، فيقول: لما تعافيت من الحمى يا سيف الدولة، فقد تعافى المجد، فإن المجد كان مريضاً بمرضك، ولما مرضت مرض المجد.

وكذلك الكرم والجود والبذل والسخاء مرضا لما مرضت؛ لأنه مدحه بالشجاعة ومدحه بالسخاء، فالشجاع تجده إذا أصابه وهن أصاب الشجاعة وهن، وكذلك الرجل الكريم يتأثر الناس الذين يستفيدون منه، فكأنه لتأثره ولمرضه تمرض هذه الصفة التي هي الشجاعة والكرم.

قال: (**وزال عنك إلى أعدائك الألم**) قال: نسأل الله أن ينقل عنك هذا الألم إلى أعدائك الذين ناوؤوك وشنؤوك.

قال: (**وما أخصك في برء بتهنئة**) يقول: أنت إذا برئت وشفيت فلا نهنئك وحدك؛ لأن شفاءك بإذن الله شفاء الناس؛ فإذا سلمت فكل الناس قد سلموا.

وهي أبيات جميلة من قصيدة جميلة.

وأذكر بالمناسبة أن الشيخ ابن عثيمين- غفر الله له- لما عولج في أمريكا في مرض موته، ثم رجعنا في مجلس، فسألني: ما أخبار الشعر؟ وكان المشهد لا يناسب أن تأتي بقصائد وتتفصح للحدث؛ لأن الشيخ كان موجعاً مريضاً، فقلت:

المجدُ عوفِي إذْ عوفيتَ والكرمُ وزالَ عنْكَ إلَى أعدائِك الألمُ

وما أخصُّك فِي بُرْءٍ بتهنئةٍ إذا سلمتَ فكلُّ الناسِ قَدْ سلمُوا

فقصدي من هذا: أنك تجد للمتنبي أحياناً بعض الوقفات، فلا يحسن إلا هذا الكلام، ولا يحسن إلا أن تقول هذا الحديث.

وأذكر من الوقفات أن ملك النصارى في طرف أسبانيا في البرتغال كان يقاتل المسلمين، وكان متجهزاً بجيش كبير، فأرسل ليوسف بن تاشفين قائد المرابطين رسالة يتهدده فيها، فقلب ابن تاشفين الرسالة -وكان مجاهداً رجلاً صالحاً- وإن كان من أخطائه التاريخية عدوانه على المعتمد بن عباد في قرطبة أو في إشبيلية، المقصود أنه كتب له تهديداً، وجهز جيشاً يريد غزو بلاد المسلمين، فقلب يوسف بن تاشفين الرسالة، وكتب في ظهرها: (**ولا كتب إلا المشرفية عنده**) المشرفية عنده: يعني: السيوف.

(**ولا رسل إلا الخميس العرمرم**) يقول: نحن لن نكتب لك رسائل، ولن نتفصح، ولن نكثر، فما عندنا إلا سيوف مصلتة مهيأة مؤمنة سوف تحصدك وتحصد من وراءك.

ولن نرسل لك بريداً ورسولاً يقنعك، وقد تفاوضي استشاري بمحادثات دبلوماسية، فعندنا خميس عرمرم وهو الجيش، وهذا من أبيات المتنبي. وبالفعل تجهز يوسف بن تاشفين ونزل أسبانيا التي هي الأندلس وحطم النصارى وسحقهم

سحقاً ما بعده سحق، وكان هو من المؤمنين الكبار بالله، ومن المجاهدين الصادقين، أسس دولة الموحدين في مراكش، لكن اعتدى فيما بعد على المعتمد ابن عباد في إشبيلية في كلام طويل، والله سبحانه وتعالى سوف ينصفهم يوم القيامة، ينصف المظلوم ممن ظلمه، نحن لا نقف إلا مع استشهادات الناس.

ومن الاستشهادات أن أحد الزعماء مر بطريق، وكان هناك جزار لا يدري أن هذا الزعيم قد مَر، فرمى أشياء من بقية الذبيحة فوقعت على هذا الزعيم وهو في موكب، فأراد أن يختلع رأس هذا الجزار، فقال أحد مرافقيه من الأدباء: أيها الملك، أو أيها الزعيم، أو أيها الأمير:

لا يسلمُ الشرفُ الرفيعُ منَ الأذَى حتَّى يـراقَ علَى جوانبِه الـدَمُ

وهذا البيت أيضاً لأبي الطيب، فقال: عفوت عنه لأجل هذا البيت، وإنما نستشهد بهذا؛ لأنه مطلوب منا في الإسلام من حملة الكلمة الراشدة أن يكونوا بلغاء، ويكونوا فصحاء، وعندهم من التأثير الأدبي ما يقنع السامع، حتى في باب الوعظ؛ لأن باب الوعظ باب شريف يحتاج إلى قافية وإلى آية وإلى حديث وإلى قصة، حتى يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾[النساء:٦٣] القول البليغ ما يتأتى إلا بفصاحة تقرأ، وبأبيات يستشهد بها وبجملة مفيدة ناصعة وببيان خلاب، وببلاغة متناهية في الحسن، أما أن يلوك الإنسان الكلام لوكاً للناس، ويعجنه عجناً ويتفأفأ ويتمتم فإنه لا يقنع السامع، لا بد أن يكون الإنسان مؤثراً في بيانه؛ ولذلك كان سيد الخلق ﷺ من أفصح الناس فلا يتلعثم ولا يتوقف، وكان يتقن الجملة، من الإقناع، ويهدي أمماً بكلمة واحدة لا كما يقول الزبيري:

ما بِنَا جملةٌ من اللفظِ إلا وابتلَى اللفظُ أمةً مِنْ عفاءِ

سؤال: أما ترى أن بعض الناس محظوظ؟ فبعض الناس عندهم حظ، يقول سبحانه وتعالى في الحظ: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت:٣٤-٣٥].

فيقول هو:

هوَ الجدُ حتَّى تفضُلَ العينُ أختَها وحتَّى يكونَ اليومُ لليومِ سيِّدا

يقول: حظ من الله سبحانه وتعالى حتى تجد العينين وهما في رأس واحد، وتجد أن إحداهما أقوى نظراً أو أكثر ملاحة من الأخرى، فيقول: قد يتساوى الناس والأيام، لكن بعضها أفضل من بعض.

وحتى يكون اليوم لليوم سيداً: فيوم الجمعة أفضل من يوم السبت، فيعطي الله سبحانه وتعالى بعض الناس من الحظ والقبول والحظوة، مع أنهم من أب وأم ويلتقون إلى آدم وحواء وهم بشر، لكنه الحظ من الله.

يقول هذا؛ لأنه يبارك لسيف الدولة في قصيدته التي مطلعها:

لكلِّ امرئٍ منْ دهرِه ما تعوَّدا وعاداتُ سيفِ الدولةِ الطعنُ في العِدَا

إلى أن يقول:

هو الجدُ حتَّى تفضُل العينُ أختَها وحتَّى يكُون اليومُ لليومِ سيِّدَا

فيقول: هذا حظ من الله؛ لأنك لما برزت للناس، وتفوقت عليهم فإن الله أعطاك هذا الحظ فكنت أنت أكثرهم مقاماً وأكثرهم قبولاً ورفعة، كما أن عيناً أحياناً تكون أفضل من عين، وهي أختها.

سؤال: كيف يعاقب الحر إذا أخطأ؟ فالناس فيهم رجل شهم وصاحب مروءة، ويعثر أحياناً، يخطئ. وكما يقول الشاعر:

مَــنْ ذا الــذِي مــا ســاءَ قــطْ   ومَــنْ لــه الـحُـسْـنَـى فـقَـطْ

وأحياناً رجل سفيه طائش كثير الخطأ، كثير الزلات فهل يستويان؟

قال:

ومـا قتَل الأحــرارَ كالعفوِ عنهُمُ   ومنْ لكَ بالحرِّ الذِي يحفظُ اليَدَا

يقـول: إذا أردت أن تقتـل الإنســان فلتعفُ عنه، خاصة الحـر؛ لأنه يتأثر من العفـو، ويصبح لك عليه منة، فتجده يستحيي وتجده يـأكل نفسه غبناً وندماً على الإســاءة التي سلفـت، أما اللئيم فإنـك إذا عفوت عنه يتصـور أن ذلك لقوته هو ولشجاعته وأنك جبان أو أنك خائف منه، ولذلك يقول:

إِذَا أنـتَ أكرمْـتَ الكريـمَ ملكتَه   وإنْ أنـتَ أكـرمْـتَ اللئيمَ تمـرَّدا

وهــذا من بدائعه التي ســار بها الركبان وانتشرت مثلما قــال الشوكاني: قال أحـد ملوك اليمـن لما أتى شاعر له: قــال: أنا أشعر من المتنبـي قال: كذبت، بل المتنبـي أشعـر منك ومـن أبيك وجدك، فإن لـه ثلاث مئة بيت تـدور على ألسنة الملـوك، فضلاً عن غيرهم ومنهــا: (**إذا أنتَ أكرمْـتَ الكريمَ ملكتَـه**) فإن بعض النــاس إذا أكرمته ووجـد إحسانك ويدك البيضاء طوقته وعرف أن المنة لك بعد الله ﷻ، فتجـده يحفـظ الجميل ويحفـظ الإحسان، وكلما مرت بـه إساءات منك أو أتــاه نقصــ، قال: أنا أذكر أن له مواقف فلن أنســى مواقفه الجميلة التي مرت، وإحسانه، هل ننسى تلـك الشفاعات وتلك الإكرامات، وتلك المواقف العظيمة، لا يمكن أن ننساها. قال:

إذا أنـتَ أكرمْـتَ الكريـمَ ملكتَه   وإنْ أنـتَ أكـرمْـتَ اللئيمَ تمـرَّدا

فاللئيـم يزداد انحرافاً ويزداد تمـرداً، ويزداد بغياً، يعنــي: ألا تعامل الناس كلهم سواء؛ ولذلك يقول في بيت بعده:

فوضعُ النَّدى في موضعِ السيفِ بالعُلا مُضرٌ كوضعِ السيفِ في موضعِ النَّدى

يعني: إنك في موقف يحتاج منك حزم، ويحتاج منك شجاعة، فتأتي بحلم وسهولة ولين فلا تصلح، وموقف يحتاج إلى سهولة ولين ورقة فتجعل مكانه الحزم والغلظة والشجاعة، فلا يصلح، فأحياناً بعض المواقف تحتاج إلى صرامة وإلى قوة وإلى شجاعة فهذا وقتها، ما يقدر ذلك إلا الحكيم، وأحياناً تحتاج الأمور إلى بساطة وإلى لين وإلى عفو وإلى مسامحة، ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦٩]؛ ولذلك فإن بعض الناس على ما آتاه الله سبحانه وتعالى من قدرات تجده يتغافل عن الزلات، حتى يقول الإمام أحمد: تسعة أعشار حسن الخلق في التغافل. إنك إذا تغافلت مع الزوجة، مع الأخ، مع الابن، مع القريب، كأنك ما سمعت؛ لكي تصلح الحياة، ولهذا يقول أبو تمام:

ليسَ الغبيُّ بسيدٍ في قومِه لكنَّ سيدَ قومِه المُتغابِي

فتجد عند بعض الناس من الذكاء أنه يتغابى ويتغافل عن أخطاء الآخرين وعن زلاتهم، فالغبي لا يكون سيداً ولا يقود الجموع، لكن هذا الذكي الذي يتغافل ويترفع عن الزلات والأخطاء هو الذي يسود الناس بلا شك، وهذه من بعض بدائعه.

سؤال: ألا ترى كيف يتقلب الزمان بأهله؟

قال:

وصِرْنا نرَى أنَّ المتارِكَ محسنٌ وأنَّ خليلاً لا يضرُّ وَصولُ

يقول: تقلب بنا الزمان، وأصبحنا في دهر نرى الذي يتركنا من أذاه قد أحسن إلينا، جزاه الله خيراً، لا نريد أن ينفعنا ولا أن يجود علينا، ولا أن يقف معنا ولا أن يشفع لنا، نريد فقط أن يكف أذاه، فقط لا يؤذينا ولا يتعرض لنا، ولا يشتمنا، ولا يجرح مشاعرنا.

ولذلك ورد في الصحيح عند مسلم من حديث أبي ذر أن الرسول ﷺ لما أوصى أبا ذر قال له: «**فإن لم أجد؟- يعني ما يجد من المعروف ما يسدي- قال: كُفّ أذاك عن الناس فإنها صدقة تتصدق بها على نفسك**» أو كما قال ﷺ، يعني: إنك إذا كففت أذاك عن الناس، فقد تصدقت على نفسك، فما عاد عند الإنسان نفع للآخرين ولا شفاعة ولا إكرام ولا صدقة ولا ضيافة، فليكف يده ولسانه، ويترك الناس من أذاه، يلزم بيته، هذه صدقة، فانظر كيف صاغ المعنى، انظر لهذه العبقرية الملتهبة اللامعة، يقول:

وأنَّ خليلاً لا يضرُّ وَصُولُ

حتى صاحبنا وصديقنا وحبيبنا الذي ما ضرنا فهو وصول، جزاه الله خيراً وصلَنا؛ لأنه ما ضرنا؛ لأن الأصدقاء قليل منهم من يفي.

ونعود فنسأل المتنبي في تجربة أخرى من تجارب الحياة، ونقول له: هل يشعر الناقصون بنقصهم؟ المخطئ هل يشعر بخطئه؟ هل يشعر مثلاً الجاهل أنه جاهل؟ هل يشعر الأحمق أنه أحمق؟ المصيبة أن بعض الناس لا يدري ولا يدري أنه لا يدري كما يقول الخليل بن أحمد: أحط الناس الذي لا يدري ولا يدري أنه لا يدري.

على منهج القرآن: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة:١٢] فهم واقعون في الفساد، ولكن لا يشعر أحدهم أنه مفسد، وهذا أشد الناس وأشر الناس، جاهل ولا يدري أنه جاهل؛ لأن الذي يدري يتعلم، فقلنا له: هل يشعر الناقصون بنقصهم؟

قال:

كدَعْواكَ كلٌّ يدَّعِي صحَّةَ العقلِ ... ومنْ ذا الذي يدري بما فيهِ منْ جهلِ

فيقول: مثلما ادعيت أنت فكل يدعي أنه صحيح العقل، فتجد غالب الناس راضياً بوضعه، ويرى أن عنده من الحكمة ومن البصيرة ومن الفتوحات الربانية ويخاف على نفسه من العين وهو لا يحفظ آية الكرسي، ولم يسمع بابن خلدون، ولا يحفظ حديثاً من صحيح البخاري، وإذا قلت له: يا أخي، تعلم، قال: والله عندنا خير الحمد لله، ونحن تعلمنا وسمعنا من المشايخ كثيراً، والدين واضح والحمد لله.

فإذا قلت له: سجود السهو قبل السلام أو بعده؟ قال: الحمد لله نحن نشأنا على خير وعلى دين ولا تدخلونا في مسائل، وإذا قلت له في الكرم قال: الله سبحانه وتعالى يعلم أني لا أحسب للدنيا حساباً، وأن الدراهم عندي مثل التراب. وإذا قلت له: لو تحرص على التواضع، قال: الله يعلم أني مثل النسيم، ويعرف الناس كلهم أن قلبي أبيض، وهو لا يعرف أحداً ولا شيئاً، وقلبه أسود من الليل، فهذه المشكلة؛ لأنه لا يريد أن يتعالج، فلا يستطيع أن يتداوى، فيقول المتنبي:

(**كدعواك كل يدعي صحة العقل**) فأكثر الناس على الدعاوى، حتى تجد من الناس من قد يكون ذا علم، لكنه يزيد في ألقابه، فإذا قلت له: ما شاء الله أنت عندك خير وعلم، قال: أنا أبشرك، فإذا قلت له: أتحفظ الصحيحين؟ قال: بل الستة، أبشرك، لكن لا تخبر أحداً، وقد لا يقيم ثلاثة أحاديث، فالمشكلة الدعاوى.

يقول البوصيري:

والدعاوى ما لم يقيموا عليها بينات: أي: أصحاباً وأدعياء.

يقول أحد العلماء: كل نفس فيها النمرود بن كنعان، لكن منهم من يظهر ومنهم من يكتم، وإنك لو بحثت العالم الآن لوجدت تسعين في المئة منهم كل يدعي فوق ما له، فتجد بعضهم ذا ظلم، لكنه يقول: الله يعلم أني أتحرى في المسائل الدقيقة والجليلة، وهو مظلوم دائماً، هو يقول: يتهمونني ويعلم الله أني بريء من هذا، فهو سبحانه وتعالى يطلع على ما في نيتي، وتجد العالم قال: الحمد لله هذه

المسائل انتهينا منها، وعرفناها، وقرأت الحمد لله الكتب، وبدأت أحقق مسائل خفيت على بعض العلماء المتقدمين، سبحان الله! فقد يأتي المتأخر ويدرك ما لا يدرك المتقدم، يعني أنه أدرك هو ما لم يدرك مالك والشافعي. وحتى الشعراء إذا جاؤوا في المقابلة قال: هذه القصيدة قد ألقيتها وحظيت بالاستحسان، وقد نلت جوائز من جمعية خيرية، ومن مدرسة ابتدائية ليلية لمحو الأمية، فيرى نفسه مقدماً؛ لأن من حوله يلبسون عليه، فهم يسقونه كأس خمر المديح، فأصبح رأسه طاشاً، فأصبح يتكلم بجهل، فيقول:

كدعواكَ كلٌّ يدعِي صحّةَ العقلِ ... ومنْ ذا الذي يدري بِمَا فيهِ من جَهْلِ

لكن من يصوغها إلا أبو الطيب بهذه الألفاظ ويرسلها لك في بيت محفوظ؟ ولذلك له ألف سنة الآن، ألف سنة هذا الشعر وباقٍ في الناس، حتى عقدوا له مؤتمرات عالمية في العالم العربي، منها في المربد لقاء باسم المتنبي وحضر عبد الله البردوني شاعر اليمن الذي توفي قبل سنوات، وكان المؤتمر عن المتنبي فحضر النقاد والشعراء والعلماء، من كل العالم العربي؛ لأنه شاعر العربية، فجاء البردوني يمدح هذا المتنبي، فقال فيه:

مِنْ تلظِّي لموعِه كادَ يعمَى ... كادَ من شهرةِ اسمِه لا يسمَّى

مِنْ تداجِي يا ابنَ الحسينِ أداجِي ... أوجُهاً تستحقُّ ركْلاً ولَطْمَاً

كمْ إلَى كمْ أقولُ ما لستُ أعنِي ... وإلَى كَمْ أبنِي على الوهمِ وهْمَا

هذا هو المتنبي الذي يمدحونه، فهذه الدرر هي التي خلدته، وإلا فعندنا بعض الشعراء المعاصرين عنده ثمانية دواوين، كل ديوان مثل كيس الإسمنت، ما تحفظ منها بيتاً؛ لأنه يشعر في كل مناسبة، تزوجت بنته فعمل ثلاث قصائد، باعوا غنمهم فعمل قصيدة، افتتحت صوامع الغلال فعمل قصيدة، جاء مخيم صيفي فعمل قصيدة في الافتتاح وأخرى في الختام، نقلوا الخيمة فعمل فيه

قصيدة، مدح رئيس المركز والطباخين والسفرجية، ثم أخرج لنا دواوين، فهذا قد مات هو وشعره.

المتنبي له ديوان فقط، ستة آلاف بيت أو خمسة آلاف ونصف، لكنه طائر في الناس، يقول: هو يطير والشعراء يمشون، هذا هو الشعر؛ ولذلك أخذ العلماء والخطباء شعره القوي هذا، أرسلوه على المنابر وأرسلوه عبر القنوات وأرسلوه عبر الكتب؛ لأنه متفوق عليهم كما يقول:

وما الدهرُ إلا مِنْ رواةِ قصائدِي إذا قلتُ شعرًا أصبحَ الدهرُ منشِدا

حتى الدهر ينشد معي، وهو الذي يقول:

أنا الذي نظرَ الأعمَى إلَى أدبِي وأسمعَتْ كلماتِي مَنْ بِه صَمَمُ

حتى العمي لا بد أن أريهم أدبي وأطلعهم عليه، وكذلك الذي فيه صمم أدخل المعلومة في ذهنه من أذنه حتى يسمعها رغم أنفه، هذا هو الإبداع. سؤال: بيننا علماء بين أظهرنا ونرى الناس لا يستفيدون منهم؟

يقول:

وليسَ الذِي يتبعُ الوبلَ رائداً كمَنْ جاءَه فِي دارِه رائدُ الوبلِ

يقول: ليس من يبحث عن المطر في واد- كأهل البادية ينظرون إلى الغمام فيلتمسون مواقع القطر من وادٍ إلى وادٍ فتعبوا- ليس حاله مثل من فوجئ وإذا المطر عليه في واديه والغيث صب عليه في منازله ومراتعه فما سافر، قال: هذا مثل من عندهم العلماء بين أظهرهم ولا يستفيدون شيئاً.

قرأت عن سيرة مالك بن أنس إمام دار الهجرة رحمه الله يقول: كان طلابه قد أتوا من خرسان وأتوا من الأندلس وأتوا من المغرب يطلبون العلم عنده وابنه يطارد حمامة، فقالوا: يا أبا عبد الله، ما هذا؟ قال: الهادي هو الله سبحانه. الذي

يوفق هو الله، سبحان الله تجد عم الرسول ﷺ مثلاً أبا لهب غوى وانحرف عن منهج الله وهو هاشمي قرشي عم الرسول عليه الصلاة والسلام، وأما بلال من أرض الحبشة وصهيب من الروم وسلمان من أرض فارس، فهم ينافحون عن الملة ويدافعون بدمائهم وبأنفسهم عن هذه العقيدة الصحيحة الخالدة.

سؤال: ما خلاصة تجربتك مع الناس؟

يأتي بتجربة طاغية لكنا لا نوافقه عليها، لكن هذا تصوره في الحياة وفي الناس، جربهم، لدغ منهم، شوهوا سمعته، تعرضوا له.

قال:

ومَنْ عرفَ الأيَّامَ معرفتِي بِهَا   منَ النّاسِ روَّى رمحَه غيرَ راحمِ

يقول: ليتكم تعرفون مثلما أعرف، فمن عرف الأيام والناس معرفتي بها وبهم، فلن يرحمهم أبداً، بل يروي رمحه من دمائهم، ويشفي غليله منهم.

فليسَ بمرحومٍ إذا ظفرُوا به   ولا فِي الرَّدَى الجارِي عَلَيهم بآثمِ

يقول: والله لو يظفرون بك فإنهم يقصمون ظهرك، لا تقل: إنهم إخوانك، نحبكم في الله، وندعو لكم بظهر الغيب، ونسأل الله أن يجمعنا بكم، يقول: لا، هذا فقط لأنهم في منفعة يريدونها منك، لكن يوم يجدون فرصة فإنهم ينقضون عليك.

وهذا ليس بصحيح من حكمه، ففي الناس لئيم وفي الناس غدار وفي الناس مكار، لكن هذا ليس حكماً عاماً، لا والله ففي الناس أوفياء وشرفاء وصلحاء، وفي الناس والله من يقف معك، ويدعو لك وهو صادق في حبه.

لكنه طغى، الرجل هذا عرف الحياة بهذا المنظر؛ لأنه وجد من الصعوبات ومن المناوءات ومن المكائد الكثير؛ لأن العبقرية دائماً تحف بالنكبات، تحف

بالمكائد، والرجل بارز، الرجل يستولي الحضور، يخطف الأضواء، له حضور طاغٍ، فهو مشروع فكري ثقافي وجد في تلك الحقبة، فصارت تضرب عليه السهام، يحضر المهرجان مثلاً عند عضد الدولة، فحضر ثمانون شاعراً وهو من ضمنهم، شعراء كبار وعضد الدولة ملك كبير- اقرؤوا ترجمته عند ابن كثير والذهبي- طاغٍ، قتل من قرابته نحو ثلاثة ملوك، وقتل من الملوك الآخرين، حتى ذهبوا في عيد الأضحى، ليسلم عليه الناس والشعراء والأدباء، وإذا هو قد نظم رؤوس الملوك الذين قتلهم، والجماجم علقها، فيقول أحد الشعراء له:

صلْ يا ذا العُلاَ لربِّك وانْحَرْ ... كلُّ ضدٍّ وشانئٍ لك أبتَرْ

أنتَ أعلَى منْ أن تكونَ أضاحِيـ ... ـك قروماً من الجمال تعفَّرْ

يقول: لا تضحي بالجمال ولا البقر ولا الغنم، خلِّ هذه في المجزرة والمسلخ للناس يضحون بها؛ فأنت أكبر من أن تكون أضاحيك قروماً من الجمال تعفر، بل قروماً من الملوك.

كلَّما خرَّ ساجداً لك رأسٌ ... مِنْهم قالَ سيفُك: اللهُ أكبَرْ

وهذا من أبلغ المدح على الإطلاق الذي قيل في عضد الدولة.

هذا عضد الدولة أقام مهرجاناً في بغداد، مهرجاناً كبيراً حافلاً ودعا له ثمانين شاعراً منهم المتنبي، وحضر الشاعر السلامي الذي يقول لعضد الدولة قبل المتنبي- لأنهم بدؤوا والمتنبي يتأخر؛ لكي يكتسح الحضور ويأخذ الجائزة ويتركهم في خبر كان- قام السلامي قال:

إليكَ طوَى عرضَ البصيرة جاعلاً ... قصارى مناهُ أنْ يلوحَ له القَصرُ

فكنتُ وعزمِي والظلامُ وصارمِي ... ثلاثةَ أشباهٍ كَما اجتمَعَ النَّسْرُ

وبشرتُ آمالِي بشَخْصٍ هوَ الورَى ... ودارٍ هيَ الدُّنْيا ويومٍ هوَ الدَّهْرُ

فالشخص عضد الدولة والدار بغداد، وهذا من أجمل الأبيات، لكن جاء الصاعقة، فقام المتنبي، فقال:

فدىً لكَ مَنْ يقصرُ عنْ مداكا ... فمَا ملكٌ إذاً إلا فَدَاكا

ولو قلْنا: فدىً لكَ مَنْ يساوِي ... دعونَا بالبقاءِ لمَنْ قَلاكا

أروحُ وقدْ ختمتُ علَى فؤادِي ... بحبِّك أنْ يحلَّ بهِ سوَاكا

وقدْ حمَّلتَنِي شكراً ثقيلاً ... طويلاً لا أطيقُ لَهُ حِرَاكا

وحاذرْ أنْ يشقَّ علَى المطَايا ... فلا تمشِي بنَا إلا ابْتَراكا

إذا استشفيتَ من داءٍ بداءٍ ... فأقْتَلُ ما أعلّكَ ما شفَاكا

إذا اشتبكَتْ دموعٌ فِي خدودٍ ... تبيّنَ مَنْ بكَى ممَّنْ تباكَى

ومضى بها في قوة وفي أسر وفي إبداع وفي سحر في موج كالجبال حتى أكمل ثمانين بيتاً، فبهت الناس، دهش الناس، أخذ الجائزة على الثمانين، فهو -بلا شك- مبدع في هذا الباب، وسبحان الذي أعطاه الحكم، وأعطاه قوة الأسر، وهذا أمر معلوم.

سؤال: هل تحب الهدية ممن تحب؟ هل تحب الناس من أجل الهدايا والمنافع الشخصية؟

قال:

ومَا أنَا بالباغِي علَى الحبِّ رشوةً ... ضعيفُ هَوى يبغِي عليهِ ثَوَابا

يقول: ما أريد رشوة على الحب، أنا حبي مجرد، أنا لا أحب الناس من أجل الأعطيات، انظر كيف صاغ العبارة، أنا لست ضعيف هوى يريد مصالح من الناس، أحبهم من أجل أن يقفوا معي ويشفعوا لي، من أجل أن يعطوني شيئاً، لا، حبي مجرد صادق للنفس.

وهـو طبعاً ما يحب في الله ولا يبغض في الله عسى الله أن يتجاوز عنا وعنه، لكن هو يقول في الدنيا: أنا حبي شخصي لنفس الإنسان، ولمناقب الإنسان.

لأن ضعيـف الهوى يريـد أن تعطيه وتسدي إليه وتمنحه وتهـدي له، أما قوي المحبـة، فإنـه لا يريد منك مكافـأة، يحبك لما فيك من المعانـي، وهذه قصيدة رائعة، ومع العلم أنه يناقض نفسه في القصيدة التي قالها لكافور:

وفِي النفسِ حاجاتٌ وفيكَ فَطانةٌ سكوتِي بيـانٌ عندَها وخِطـابُ

هو يريد إمرة، يريد أن يعطيه قرية أو محافظة يتولاها، يقول: عرّضنا وسكتنا، فافهم المطلوب، ففي نفسي شيء مطلوب وأنت ذكي وأنت تعرف الموضوع، دعنا نتفق من الآن، تحرينا وانتظرنا، فأعطني مرادي.

وبهـذا كله لا يخفى على القارئ لديوان المتنبي ما فيه من حكم، وما فيه من إبداع، وغير ذلك.

الشعر والعيون

يقول أبو الطيب المتنبي:

وما انتفاعُ أخِي الدُّنْيا بناظرِه

إذا استوَتْ عندَه الأنوارُ والظلمُ

يقول: كيف ينتفع الإنسان بعينه أو ببصره إذا كان الظلام والنور عنده سيان، لا يميز بين الحق والباطل، ولا بين الخير والشر، إذاً فكونه يبصر أو كونه أعمى سيان، وهذا من حكمه الفريدة، وقصيدته هذه التي منها هذا البيت هي من أجمل قصائده، حتى يقدمها بعضهم على كل القصائد، ومطلعها:

واحـرّ قلبـاهُ مـمَّنْ قلبُـه شبِـمُ ... ومَنْ بجسمِي وحالِي عندَه سقمُ

ما لِي أكتّمُ حباً قد بَرَى جسدِي ... وتدَّعِي حبَّ سيفِ الدولةِ الأممُ

إلى أن يقول فيها:

أنا الذِي نظرَ الأعمَى إلَى أدبِي ... وأسمعَتْ كلماتِي مَنْ بهِ صممُ

الخيلُ والليلُ والبيداءُ تعرفنِي ... والسيفُ والرمحُ والقرطاسُ والقلمُ

سيعلمُ الجمعُ ممنْ ضمَّ مجلسَنا ... بأنَّنِي خيرُ مَنْ تسعَى بهِ قدمُ

وبعد عنه ذلك؛ فما هذا إلا خير البرية رسول الله ﷺ. ثم يقول:

أعيذُها نظراتٍ منكَ صادقةً ... أنْ تحسبَ الشحمَ فيمَنْ شحمُه ورمُ

وما انتفاعُ أخِي الدنيا بناظرِه ... إذا استوَتْ عندَه الأنوارُ والظلَمُ

فالناظر هنا البصر والعين.

والعين أكثر من ذكرها الشعراء في قصائدهم وفي أشعارهم وهم يصفونها بأنها الباكية وأنها المتأثرة وأنها التي تظهر سرور النفس وتظهر جزعها عند لقاء الأحبة أو فراق الأحبة.

والسعد الشيرازي الشاعر الإيراني العالمي المشهور يقول:

بكَتْ عينِي غداةَ البينِ دمعاً ... وأخرى بالبكا بخلَتْ علَينا

يعني: الثانية.

فعاقبتُ التِي بالدمعِ ضنَّتْ ... بأنْ أغمضتُها يومَ التقَينا

والأعور السلمي يقول لما بكى على ابنه، وكانت إحدى عينيه ذاهبة، فقال:

بكيتُ بعينٍ ليسَ فيها غضاضةٌ ... وعينٍ بها ريبٌ مِنَ الحَدَثانِ
عذيرُك يا عيني الصحيحةُ والبُكا ... فما لَكِ يا عوراءُ والهملانِ

فهم يصفون العين؛ لأن أكثر ما تفجع فيه العرب بالفراق والبعد والسفر عن الأحباب.

فهذا أبو هلال العسكري يقول:

يا عينُ، صارَ الدمعُ عندَك عادةً ... تبكينَ في فرحٍ وفي أحْزانِ
طفحَ السرورُ عليَّ حتَّى إنَّني ... مِنْ عِظْمِ ما قدْ سرَّني أبكاني

أحياناً يطفح السرور على الإنسان إلى درجة أنه ما يستطيع أن يعبر إلا بالبكاء، مثل الأم التي يأتي ابنها فجأة من سفر أو مغيبة فتبكي من الفرح.

يقول أنس رضي الله عنه: «ما كنت أظن أن الإنسان يبكي من شدة الفرح، حتى رأيت الأنصار لما تشافى عليه الصلاة والسلام من مرضه قبل مرض الموت وخرج ليصلي بهم ﷺ ووجهه كورقة المصحف، فلما رأوه بكوا من شدة الفرح»، وقال في بعض الروايات: «إنه لما قدم ﷺ من مكة إلى المدينة خرج الأنصار للقائه فبعضهم بكى من شدة الفرح».

ومن شدة الفرح بكى أبي بن كعب لما أخبره عليه الصلاة والسلام أن الله سمى أبي بن كعب في الملأ الأعلى، قال: «وسماني في الملأ الأعلى؟ قال: سماك، فبكى من شدة الفرح رضي الله عنه وأرضاه».

وتفنن الشعراء في ذلك، ومن ذلك بيت جرير المشهور:

إنَّ العيونَ التي في طرفِها حورٌ ... قتلْننا ثمَّ لَمْ يُحيينَ قَتْلانا
يصرعْنَ ذا اللبِّ حتَّى لا حراكَ به ... وهُنَّ أضْعفُ خلقِ اللهِ إنْسَانا

وهذه من أجمل قصائده، ومطلعها:

بـانَ الخليطُ ولـو طُـوِّعـتُ مـا بانَا ‏ ‏ ‏ ‏ وقطّعُوا مِنْ حبالِ الوصلِ أَقْرانَا
كادَ الهوى يـومَ سلمانينِ يقتلُني ‏ ‏ ‏ ‏ وكـادَ يـقـتـلُـنِـي يـومـاً بـبَـيْـدانَـا
لا باركَ اللهُ فِي الدُّنْيا إذا انقطعَتْ ‏ ‏ ‏ ‏ أسبابُ دُنْياك مِنْ أسبابِ دُنْيانَا

وهـو رقيق الحاسة، هـذا جرير الذي يقول: لو تركني الفـرزدق- لكن أشغله الفرزدق- لأبكيت العجوز على شبابها.

وهنـا نعـود للمتنبي في مسألة العيـون؛ لأن له في البكائيـات كثيراً، حتى إنه يقول في قصيدة له مشهورة:

أرقٌ علَـى أرقٍ ومثـلـيَ يَـأْرقُ ‏ ‏ ‏ ‏ وجَـوىً يـزيـدُ وعـبـرةٌ تـتـرقـرَقُ

ويقول في أخرى:

إذا اشـتـبـكَـتْ دمـوعٌ فِـي خـدودٍ ‏ ‏ ‏ ‏ تـبـيَّـنَ مَـنْ بـكَـى مـمَّـنْ تـبـاكَـى

وهو صاحب ذاك البيت الفريد الذي يقول فيه:

وأنَـا الـذِي جلبَ المَنِـيَّةَ طَرْفُه ‏ ‏ ‏ ‏ فمنِ المطالَبُ والقتيلُ القاتِلُ

يقـول: تسببت أنا في النظر، فلما نظـرت فتنت وتعبت من هذا النظر فكدت أشـرف على الموت، فمـن أطالب، من يأتينـي، أنا الذي قتلت نفسـي، القتيل هو القاتل، وهذا من حكمته وبراعته في صوغ الألفاظ؛ فإنه يأتي بأمور حتى يقول عن الدنيا بيتاً، الشوكاني تعجب من هذا البيت في رسائله، وقال: لا إله إلا الله! ما أدق نظره- يعني نظر المتنبي- فإنه يسقط على الحكمة بامتياز، يقول:

كـلُّ دمـعٍ يـسـيـلُ مـنـهَـا علَيهـا ‏ ‏ ‏ ‏ وبـفـكِّ الـيـديـنِ مـنْـه تـخـلَّـى

يعنـي الدنيـا، يقول: لا تصدق الواحـد إذا بكى من الدنيا أنـه يتوجع، فهو لا يبكي منها متوجعاً، بل يبكي عليها شفقة وحباً لها.

وإذا الشـيخُ قـالَ آهِ فَمَا مـلَّ مُقـامـاً وإنَّمـا العيشَ مَلاَّ

يقـول: لا تظـن الشيـخ الكبير السن إذا قـال: آه، قد ملّ، هو ما مـلّ، يريد الحياة متشبثـاً فيهـا، لكـن العيش هو الـذي ملّه، هذا في بعض كلام الشراح، أبـداً الإنسان متشبـث بالحيـاة، وكما صح عنه عليـه الصلاة والسـلام: «يهرم ابـن آدم ويشب فيه شيئان: الحرص على المال، والحرص على الحياة» أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

فهذه من فلسفة أبي الطيب. وعلى ذكر العيون والسهر يقول أبو نواس:

شَكَونا إلَى أحبابِنا طول ليلِنا فقالُوا لَنا: ما أقصرَ الليلَ عندَنا

يقـول: إنا سهرنا نحن فـي فراقهم وفي بعدهم، ولكنهم علـى عكسنا فالليل عندهم قصير. حتى يقول المتنبي:

سهـرتُ بعدَ رحيلِي وحشـةً لكمُ ثم استمرَّ مريرِي وارعوَى الوسَنُ

يقول: سهرنا الليالي، ثم نسينا، ثم جاء النوم، ثم رقدنا، ثم نمنا، فأبو نواس يقول:

شَكَونا إلَى أحبابِنا طولَ ليلِنا فقالُوا لَنا: ما أقصرَ الليلَ عندَنا

لأن أولئك ينامون ونحن لا ننام.

وذاكَ بأنَّ النومَ يغشَى عيونَهم يَقِيناً ولا يغشَى لَنا النومُ أَعْينا

وهذه من أجمل الأبيات.

ويقول خالد بن يزيد، وقيل: إنه يزيد بن معاوية وكان شاعراً يقول الشعر:

لا أسـألُ اللهَ تغييراً لـمَا فعلَتْ نامَتْ وقد أسهرَتْ عينيَّ عَيناهَا

فالليلُ أطولُ شيءٍ حينَ أفقدُها والليلُ أقصرُ شيءٍ حينَ ألقاهَا

وعلى ذكر الليل وليلى وهذا من الجناس، فقد استخدمه شاعر في ليلى حبيبته، فهو مقرون الليل بليلى قال:

لَيلِي وليلَى نفَى نومِي اختلافُهما في الطُّولِ والطَّوْلِ طوبَى لِي لو اعتدَلا
يجودُ بالطُّولِ ليلِي كلَّما بخلتْ بالطَّوْلِ ليلَى وإن جادَتْ بِه بَخِلا

وهذا تلاعب بالألفاظ، وهذه من الأبيات المرقصة المنعشة المدهشة، ولا يستطيع أن يقولها إلا كبار الشعراء.

ويستحسن البكاء الذي ليس فيه جزع عند الوفاة- وفاة الحبيب- حتى إن سيد الخلق ﷺ لما توفي ابنه إبراهيم قال: «**تدمع العين ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا لفراقك يا إبراهيم، لمحزونون**» فجمع ﷺ بين الإيمان بالقضاء والقدر والرضا والصبر والرحمة.

ويقول أبو تمام لما قتل محمد بن حميد الطوسي، بطل قتل في معركة مع الروم، وهو من القادة العسكريين لكبار للمعتصم يقول:

كذَا فليجلِ الخطبُ وليفدحِ الأمرُ فليسَ لعينٍ لم يفضْ ماؤُها عذرُ
توفيتُ الآمالُ بعدَ محمدٍ وأصبحَ فِي شغلٍ عن السَّفْرِ السفرُ
تردَّى ثيابَ الموتِ حمراً فما أتَى لها الليلُ إلا وهيَ من سندسٍ خُضْرُ
ثوَى طاهرَ الأردانِ لم تبقَ بقعةٌ غداةَ ثوَى إلا اشتهَتْ أنَّها قَبرُ

والقصيدة المليحة هي من أحسن المراثي، وإنما الشاهد: (**فليس لعين لم يفض ماؤها عذر**) لأننا نتكلم عن العيون، حتى يقول عبد الله الصغير الأمير الأندلسي لما ضيع الملك، اشتغل باللعب واللهو فضاع ملكه في الأندلس، كان أميراً فذهب ملكه، فأتت أمه تقول له:

ابـكِ مثـل النسـاء مجداً مضاعــاً لم تحافظ عليه مثل الرجــال، ونقلها بعض الأدباء، فقال:

ابـكِ مـثـلَ الـنِّـسـاءِ مـلـكاً مُـضـاعـاً لـمْ تـحـافِـظْ عـلـيـهِ مـثـلَ الـرِّجـالِ

وكل الشعراء في الغالب يذكرون الحنين والبكاء، مثلما يقول امرؤ القيس:

قِفا نبْكِ مِن ذكرَى حبيبٍ ومنزلِ بسقطِ اللِّوى بينَ الدخولِ فحوملِ

فكلهم يتعاورون هذا المعنى ويتبادلونه بينهم، ولكن بكاء الندم على التقصير فــي جنــب الله أجمل من ذلك؛ أجمل مــن الهوى والشجا والغــرام والوصل، فهذا منتهٍ، حتى يقول لسان الدين بن الخطيب الأديب الأعجوبة الأندلسي:

جزَى اللهُ عنِّي زاجرَ الشيبِ خيرَ ما جـزَى ناصِحاً فـازَتْ يـداه بخيرِه
سلكتُ طريقَ الحبِّ حتَّى إذا انتهَى تـعـودتُ حـبَّ اللهِ عَـنْ حـبِّ غيرِه

فهؤلاء يدركون المجد، حتى إن أحد الشعراء الكبار أحالك إلى ما هو أحسن لمن يكون الحب الأحسن والأرقى؟ ولمن تسكب الدموع؟ فقال:

إذا كانَ حبُّ الهائمينَ من الورَى بليلَى وسلمَى يسلبُ اللبَّ والعقْلَا
فماذَا عسَى أن يصنعَ الهائمُ الذِي سرى قلبُه شَوقاً إلى العالمِ الأعلَى

يقــول: هؤلاء يبكون من أجل الدنيا وهي شيء منتهٍ متصرم، فكيف بمن بكى أو أحــب وصعد قلبه وعرج بروحه إلــى الملأ الأعلى إلى الله سبحانه وتعالى، فإنه الــذي يُحــب سبحانه، وحبه الباقــي وحبه الذي ينفع الإنسان فــي الآخرة، ولذلك ينبغــي أن تصــرف الدموع له سبحانــه، والحب لــه سبحانه، أما هــذه فأغراض منتهيــة: النســاء.. الثروة.. الجاه.. المــال.. الشهرة، كلها منتهيــة، أين من ساد وشــاد؟! أين من ملك وسفــك؟! أين من علا وغلا؟! أين مــن صعد وسعد؟! كلهم انتهوا، أصبحوا: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم:٩٨].

ولذلك يقول أبو العتاهية في البكاء:

بكيتُ علىَ الشبابِ بدمْعِ عينِي فما أغنَى البكاءُ ولا النَّحيبُ

يعني: كان شاباً ثم فجأة وإذا هو قد شاب.

ألا ليتَ الشَّبابَ يعُودُ يوماً فأخبِرَه بما فعلَ المشيبُ

وهناك شاعر من الشام ذكر في أبيات له أن امرأة جميلة ذهبت إحدى عينيها، فقال:

لها عينٌ أصابَتْ كلَّ عينٍ وعَيْن قَدْ أصابَتْها العيونُ

يقولون: لو اكتفى بهذا البيت لكان أشعر الناس، بيت أحسن من الديوان كله.

أصابتها عين في العين الثانية.

وعلى ذكر الخلاصة من الشيء والزبدة منه:

قالوا: خذِ العين من كل فقلت لهم: فِي العينِ فضل ولكن ناظر العين

ذاك النون الذي في العين أنك تأخذ الخلاصة وتأخذ الموجز وتأخذ الزبدة من كل شيء.

وعلى ذكر العيون، فقد كان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وأرضاه يرسل عسسه في الليل، ممنوع في منتصف الليل أن يدور أحد؛ لأن معنى ذلك لمن يدور في منتصف الليل أن عنده شبهة أو ريبة، خاصة في القرون الأولى؛ لأنه لم يكن هناك مثل الكهرباء ولا أسواق مفتوحة، فالناس يغلقون محلاتهم ويغلقون دكاكينهم ويعودون إلى بيوتهم، فأمر العسس إذا وجدوا أحداً يدور بعد منتصف الليل أن يسلموه إلى بيت الخلافة، وإذا بثلاثة شباب، فألقى العسس القبض عليهم ورفعوهم، فقال عمر بن عبد العزيز: أدخلوهم علي، ودخلوا عليه، قال: أنت ابن

من؟ قال: أنا ابن فلان الذي كان والياً لعبد الملك بن مروان، يعني: الخليفة، فما أعاره اهتماماً، سيان أمر الدنيا عند عمر بن عبد العزيز، فأتى الثاني فقال: وأنت؟ قال: أنا ابن فلان بن موسى بن نصير القائد المشهور، قال: وأنت للثالث؟ وكان شاباً ذكياً أديباً وهذا ابن قتادة بن النعمان وقتادة بن النعمان صحابي، أو جده صحابي حضر مع رسول الله ﷺ في معركة أحد وقاتل مع رسول الله ﷺ فضربه أحد المشركين بالسيف فسقطت عينه وتدلّت بعرق وأصبحت كالعنبة في خده، فأتى وعينه معلقة في خده بعرق، فردها النبي ﷺ وقال: (باسم الله) فردها مكانها بيده الشريفة المباركة ﷺ، فأصبحت أجمل من الأخرى. فقال هذا الشاب:

أنا ابنُ الذي سالَتْ على الخدِّ عينُه ... فرُدَّتْ بكفِّ المصطفىَ أحسنَ الردِّ

فصارَتْ إلى حسنٍ كأولِ مرّةٍ ... فيا حسنَها عيناً ويا حسنَ مَن ردّ

قال: فسالت عينا عمر بن عبد العزيز متأثراً باكياً، وقال مستشهداً:

تلكَ المكارمُ لا قعبانَ مِنْ لبنٍ ... شِيبَا بماءٍ فعادَا بعدُ أبْوالا

وهذا البيت لأمية بن أبي الصلت قاله يسلم به ويبارك لسيف بن ذي يزن في غمدان في اليمن لما انتصر على الأحابيش قال: الذي يريد المجد فليفعل فعلتك ليس مثلنا نحن الواحد منا يكون في خيمة من شعر إذا مر غوث أعطاه قعباناً من لبن، يعني: قدحين، يشربها وتعود أبوالاً. أما أنت فإنك أسست كياناً وطردت الأحابيش وحررت بلادك، وفعلت يوم الجلاء للدولة، فبارك له ذلك.

وهذا البيت عند العرب استشهد به في مواطن، فأحد المحدثين كان قبله ألف محبرة، أي: ألف طالب، مع كل طالب محبرة، ألف محبرة وألف عمامة، يوم جلس، قال:

إنّي إذا احتوشَتْنِي ألفُ محبرةٍ   يـروُون: حدثنِي طوراً وأخبرنِي
ناديتُ فِي الجمعِ والأقلامُ ماثلةٌ   تلكَ المكارمُ لا قعبانُ مِـنْ لبنِ

فأخـذ نصف البيـت، واستشهد به شمس الدين الحلبـي الخطيب لما دخل صـلاح الدين الأيوبي بيت المقدس وفتحه ورده إلى المسلمين جزاه الله خيراً عن الإسلام والمسلمين، قال الخطيب:

تلكَ المكارمُ لا قعبانُ مِـنْ لبنِ   وهكذا السيفُ لا سيفُ ابنِ ذِي يزَنِ

لأن ابن ذي يزن كان على ملة الكفر، لكن القائد صلاح الدين الأيوبي الكردي البطـل الفاتح قاد المسلميـن وحرر بيت المقدس من النصـارى آنذاك فاستحق المـدح بذلك. علماً بأن سيف بن ذي يزن توسم في عبد المطلب كما مر معنا: أن من نسله سوف يكون رسول الهدى عليه الصلاة والسلام، فكان ذلك.

ثم نعود إلى بشار، حيث ذكر العين والأذن يقول:

يا قومِ أذنِي لبعضِ الحيِّ عاشِقةٌ   والأذنُ تعشقُ قبلَ العينِ أحْياناً

لأنه أعمى، حتى إنهم يقولون: إنه أعمى القلب وأعمى البصر؛ يعني: لم يكن ذا بصيـرة في العلوم والإيمـان، ولذلك يشكك في معتقده فيما كتب أمره إلى الله سبحانـه وتعالـى. وغضب عليه الخليفة المهدي وهو يسوق لـه أشعاراً فائقة، وهو من كبار الشعراء على كل حال، فلما ذهب بصره قال ذلك البيت.

وقـد قدّم الله السمـاع في القرآن علـى البصر فقـال: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ﴾ [النحل:٧٨] فبـدأ بالسمـع قبـل الأبصـار؛ لأن مصدر التلقـي الأكثر هـو السمع، والأضبـط هو السمـع؛ لأن الإنسان قد يكون أعمى فيسمـع، وقد يكون في الظلام فيسمع، أما البصر فإنه قد يطرأ عليه العمى ويطرأ عليه الظلام.

ونعود إلى صاحبنا المتنبي يقول:

وما انتفاعُ أخِي الدنيا بناظرِه   إذا استوَتْ عندَه الأنوارُ والظلَمُ

فإذا كانت الحقائق مشوشة أمامه فلا يميز بين الهدى والضلال، ولا يميز بين الصلاح والفساد، ولا يختار لنفسه فماذا ترجو منه؟! فمثله كمثل الإنسان الذي في الظلام ولا يميز بين النور والظلام، فلذلك وصف الله أعداءه بأنهم عمي، ولم يستفيدوا من الآلات والجوارح التي أعطاهم، فقال: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [الأعراف:١٧٩].

وما بكى أحد واستخدم عينيه في سكب الدموع وصور ذلك في شعره كما فعل العرب، ومن ذلك ما رواه الترمذي: إن عائشة رضي الله عنها أم المؤمنين وقفت على قبر أخيها عبد الله في مكة في الحجون فبكت وقالت: «مثلي ومثلك يا عبد الله كما قال الأول:

وكنّا كندمانَي جُذيمةَ برهةً   منَ الدهرِ حتّى قيلَ لنْ يتصدّعا

وعشْنا بخيرٍ في الحياةِ وقبلَنا   أصابَ المنايَا رهطَ كسرَى وتُبّعا

فلمّا تفرقْنا كأنّي ومالكاً   لطولِ اجتماعٍ لم نبتْ ليلةً معًا

وهذه الأبيات استشهدت بها عائشة، وإلا فهي لمتمم بن نويرة في أخيه مالك، لما قتل ساق هذه الأبيات إلى أن يقول فيها:

فليتَ المنايَا كنّ خلّفنَ مالكاً   فعشْنا جميعاً أو ذهبْنا بِهَا معًا

فهي مبكية، حتى إنه يقول في قصيدة أخرى: إن الحساد أو اللوام والعذال يقولون:

وقالُوا أتبكِي كلّ قبرٍ رأيتَه   لقبرٍ ثوَى بينَ اللوَى فالدّكادكِ

فقلتُ: فدعنِي فالشّجا يبعثُ الشّجا   يقِيناً فهذَا كلُّه قبرُ مالكِ

يقول: القبور هذه ذكرتني مالكاً.

وتقول الخنساء في رثاء أخيها صخر:

يذكّرني طلوعُ الشمسِ صخراً ... وأذكـــرُه لكلِّ غـروبِ شمسِ
ولـولا كثرةُ الباكينَ حولي ... علَى إخوانِهم لقتلتُ نفسي
ومـا يبكينَ مثلَ أخِي ولكنْ ... أعـزّي النفسَ عَنْه بالتأسّي

ونعود إلى بكاء العرب على الأطلال وتأثرهم بذلك، فهم دائماً يذكرون ذلك، حتى يقول البوصيري في قصيدته الجميلة، الأعجوبة في مدح رسول الله ﷺ، مع العلم أنه غالى فيها مغالاة لا توافق الشريعة في آخرها، لكن في أولها يقول:

أمِـنْ تـذكُّرِ جيـرانٍ بـذِي سلمِ ... مزجتَ دمعاً جرَى منْ مقلةٍ بدمِ
أم هبَّتِ الريحُ من تلقاءِ كاظمةٍ ... وأومضَ البرقُ في الظلماءِ منْ إضَمِ
فما لعينيكَ إنْ قلتُ: اكففا همَتا ... وما لقلبك إنْ قلتُ: استفق يَهِمِ
أَيَحْسَبُ الصَّبُّ أنَّ الحُبَّ مُنْكتِمٌ ... ما بَيْنَ مُنْسَجِمٍ منهُ ومُضْطَرِمِ
لولاَ الهوَى لَمْ تُرِقْ دَمْعاً عَلَى طَلَلٍ ... ولا أَرِقْـتَ لـذِكرِ البَانِ والعَلَمِ
نَعَمْ سَرَى طَيفُ مَنْ أهوَى فَأَرَّقَنِي ... والحُبُّ يَعْتَرِضُ اللَّذاتِ بالألَمِ
يا لائِمِي في الهَوَى العُذْرِيِّ مَعْذِرَةً ... مِنِّي إليكَ ولو أنْصَفْتَ لَمْ تَلُمِ
عَدَتْكَ حالِي لا سِرِّي بِمُسْتَتِرٍ ... عَنِ الوُشاةِ وَلا دائي بِمُنْحَسِمِ
مَحضْتَنِي النُّصحَ لكنْ لَسْتُ أَسْمَعُهُ ... إنَّ المُحِبَّ عَنْ العُذَّالِ في صَمَمِ

وهـذا من أجمل ما يكون في الأدب، وبدأها بذكر إضَم وسلمى وذي سلم.. ونحـو ذلك؛ لأن العـرب تحب ذكر الديـار، وإذا أردت أن تهيـج مشاعرك فاذكر الديار في شعرك، حتى يقول أبو تمام:

بالشامِ أهلي وبغدادُ الهوَى وأنا ... بالرقْمتينِ وبالفُسْطاطِ جيراني

وابن الفارض يقول:

مـنْ لقلبٍ حلَّ جرعاءَ الحمىَ ... ضـاعَ مـنّي هـلْ لـَهُ ردٌّ عَلَيّ
فـاسْـألُـوا سـكـانَ وادِي سلمٍ ... فَـهُـمـا بـيـنَ كَـداء وكُـديّ

حتى إن ابن الخياط يقول على ذكر الديار والأوطان:

خُذَا مِنْ صبا نجدٍ أماناً لقلبِه ... فـقَـدْ كـادَ ريّـاهـا يـطـيـرُ بلبِّه
وإيّـاكُـمَـا ذاكَ الـنـسـيمُ فـإنّـه ... متَى يسرِ كانَ الوجدُ أيسرَ خطبِه

فكان العرب يتأثرون. وإنما أذكر هذا لإعادة ذكر البصر.. ذكر العيون.. ذكر الدموع، فإنهم يستحضرونها عند الفراقيات، فيسفكون دماءهم، حتى يقول أبو الطيب:

إنَّ الـمـحـبَّ مـضـرجـاً بـدمـوعِـه ... مـثـلَ الـقـتـيـلِ مـضـرجـاً بـدمـائِه

في قصيدته التي يقول فيها:

الـقـلـبُ أعـلـمُ يـا عـذولُ بـدائِـه ... وأحـقُّ مـنـكَ بـجـفـنِـه وبـمـائِـه
فومَنْ أحبُّ لأعصينَّك فِي الهوَى ... قـسـمـاً بِـه وبـحـسـنِـه وبَـهَـائِـه

ولا يجوز القسم إلا بالله. إلى أن يقول في البيت الفريد الذي ذاع في الناس واشتهر:

لا تـعـذِلِ الـمُـشـتـاقَ فِـي أشـواقِـه ... حتّى يكونَ حشاكَ فِي أحْشائِه

يقول: لا تعذل إنساناً مولعاً متأثراً، فأنت لا تعيش مشاعره ولا تدري ما هي النار التي يصطلي بها قلبه، إذ إنه يقول:

وعـذلْـتُ أهـلَ الـعـشـقِ حتّى ذقتُه ... فعجبتُ كيفَ يموتُ مَنْ لا يعشقُ
وعـذرتُـهـم وعـرفـتُ ذنـبِـي أنّـنِـي ... عـيـرتُـهـم فـلـقـيـتُ مـنْـه مـا لـقُـوا

هـذا مـن تجلياته فـي الأدب ومن عبقرياتـه، العجيب أن هـذا الرجل يأخذ المعنـى فكأنه الذي سبق لـه تماماً لما يكسوه من حسن لفـظ وديباجة ثم يقدمه لـك في تحفة من جماليـات الأدب ومن اختيـار اللفظ في حلل لـم يسمع بمثلها؛ ولذلك فاق الذين قبله، إلى درجة أن يقول الواحدي: لما أتى المتنبي أعرض الناس عـن شعر الشعراء حتـى الجاهليين، فاشتغل العلماء بديوانـه، واستشهدوا به في المجامع، ودار شعره عند الملوك، وسار مع السمر، وحدا به الحداة، فكأنه يعيش هذه التجربة، أو كأنه يتصورها وينظر الغيب من ستر رقيق وهو يقول:

وما الدهرُ إلا مِنْ رواةِ قصائدِي إذا قلتُ شِعراً ردّدَ الدهرُ منشِداً

فهـو يصنع الكلمة ويرسلها، بل هو يرى أنه لا يمكن أن يجارى في هذا الباب، ويطلب من سيف الدولة أن يترك كل الشعراء، وألا يلتفت لأحد؛ لأنهم أصلاً يأخذون منـه ويستفيدون منه، وهو المقدم في الجميـع، والحقيقة أنه تفوق في هذا الباب، سـواء في الرثاء.. في الحب.. في الوصف.. في المديح. ولو أن الذي ميزه الحكمة بـلا شك، حتى إنه أرسل للعالمين قصائد أو أبياتاً من الحكمة يستفيد منها النابه والذكي والعالم، وأذكر آخر ما قرأت في إحياء علوم الدين للإمام الغزالي:

وإنْ لَمْ تمُتْ بالسيفِ يوماً مكرّماً تـمتْ وتـذوقُ الـذلّ غيـرَ مكرّمِ

يعني: إنك إمّا أن تموت ميتة شريفة أو تموت ميتة فيها هوان.

المتنبي والخروج على النص

هذه وقفات مع أبي الطيب المتنبي الأسطورة، نقف معه نناقشه ونحاوره ونحدثه ويحدثنا، ولكننا نعتب عليه، نحن اعترفنا بإبداعه وبعبقريته وبنبوغه وفصاحته، ولكنه إذا تجاوز وتطاول على مقام الشريعة ومقام الدين ومقام الملة، القضاء والقدر، المبالغة المجحفة المتجاوزة أوقفناه بالعلم والدليل عند حده.

ففي قصيدة له يمدح أحد الأمراء يقول:

لو كانَ علمُك بالإلهِ مقسَّماً

فِي النَّاسِ ما بعثَ الإلهُ رسولاَ

يقول: العلم الذي عندك بالله لو قسمته على البشرية لاستغنت البشرية عن أن يرسل الله لهم سبحانه وتعالى رسولاً من رسله عليهم السلام، وهذا غاية الجور وغاية العدوان، فأنى ذلك لبشر مسكين ممدوح في قرية أو في مدينة صغيرة وهذا ليس بصحيح؛ فإن الله سبحانه وتعالى أرسل الرسل لحاجة الناس إليهم، فإن الناس قبل إرسال الرسل كانوا في ظلام وفي جهل وفي تخبط وفي انحراف عن منهج الله ﷻ، فانظر إليه ما اكتفى أن يمدح ممدوحه بالكرم والشجاعة وسداد الرأي ونحو ذلك، بل تجاوز، ولذلك وقف العلماء عند هذا البيت والذي بعده؛ فنحن لا نعرف عن ربنا سبحانه وتعالى شيئاً إلا ما أخبرنا به رسله عليهم الصلاة والسلام وسيدهم وخاتمهم وخيرهم محمد بن عبد الله ﷺ، ثم يقول:

لو كانَ لفظُك فيهِم ما أُنزِلَ الـ ... ـقرآنَ والتوراةَ والإنجيلا

أعوذ بالله يقول لهذا الممدوح: لو أنك نشرت على الناس لفظك هذا والفصاحة، لو أنك وزعتها على العالمين، تصدقت بها على الأقوام وعلى البشر ما كان أنزل الله القرآن على محمد ﷺ والتوراة على موسى عليه السلام، والإنجيل على عيسى عليه السلام، وهذا غاية الخذلان والطغيان والعدوان، فإنه اعتدى في هذا وجمح وأتى بشيء مذهل، إنسان لا يملك شيئاً إن تكلم وأجاد في دقائق، فلا يستطيع الإجادة في بقية عمره، ثم يقول: إنه يقوم لفظه مقام القرآن والتوراة والإنجيل يعني: باختصار هذه هي الإساءة، ما أدري كيف سكت هذا الممدوح وكيف قبل الأمور وتركها على هذا الظاهر؟ لأنه ما نقل عن الممدوحين أنهم غضبوا أو زجروه أو شيء من ذلك؛ لأن الإنسان أحياناً لاستمالته للمديح يقولون: يسكر بخمر المديح، فتجده يقول: لا، هو ما قصد هذا إنما قصده كذا وله معانٍ ومقاصد؛ لأن المدح فيه هو.

وهذا من قصيدة له يمدح بدر بن عمار بن إسماعيل الذي قتل الأسد، كان في عمّان وأتى الأسد فجأة، فاجأ أهل المدينة ودخل، وبدر بن عمار هذا من

شجعان الرجال، كان أميراً هناك في الأردن، معاصراً للمتنبي، فذهب المتنبي ومدحه، فالواقعة هذه: جاء الأسد فدخل فجأة في المدينة وكان سلاح بدر بن عمار في جهة من قصره والطريق تفصل بين دار هذا وهذا، فما وجد إلا عصا إلا السوط، فنزل والناس ينظرون وصعدت النساء والأطفال على سطوح المنازل وبدر هذا من شجاعته خرج يلاقي الأسد بسوطه، فلما نزل أمام الناس تواثب هو والأسد، فضرب الأسد ضربات متتابعة على رأسه حتى أسقطه في الأرض، ثم صعد على رأسه وأخذ يفتك به حتى قتله، فيقول المتنبي يمدحه يقول:

أمعفَّرَ الليثِ الهزبرِ بسوطِه لمنِ ادخرتَ الصارمَ المَصْقُولا

لكنه طغى، فليته بقي على هذا الإبداع الأول.

يقول: أنت بسوطك دمغت الأسد كيف لو كان السيف معك، ادخرته لمن؟ ثم يصف الأسد يقول:

(**يطَأُ الثَّرى مترفِّقاً مِنْ تيهِهِ**) من كبره، يقول: الأسد أتى يطأ الطين والثرى من الكبر والعجب والطغيان وقوة الأسد، طبعاً جموح هو ملك الغابة.

(**فكأنَّه آسٍ يجسُّ عليلاَ**) كأنه طبيب يجس مريضاً في جسمه وينظر علته، وهذا من أميز وصف المتنبي ومن بلاغته وفصاحته المشرقة في هذه الأبيات، لكنه يسيئ فيعود فيتجاوز، فيطغى به بيانه إلى شيء يخالف الشرع والعقل، يقولون: إن بدر هذا انتصر في معركة مع النصارى فقام الخطيب يوم الجمعة قال: ﴿ وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٍ ﴾ [آل عمران:١٢٣] والآية في بدر أعني الموقعة، وفهمت أنها في الأمير الذي اسمه بدر بن عمار؛ لأنه قاد المعركة فانتصر قال: ﴿ وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٍ ﴾ [آل عمران:١٢٣] وهذا من الإشراقات ومن الخطب الإشارية التي تنفع أحياناً في الموضوع.

يقول المتنبي في بدر في قصيدة أخرى:

يا بدرُ إنَّك والحديثُ شجونُ مَنْ لمْ يكنْ لمثالِه تكوينُ

يقول: ما مثلك أبداً في الناس ولا كون الله مثلك، وهذا تجاوز وطغيان، بل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أفضل والخلفاء وكثير من الصالحين الأبرار والشهداء الأخيار، لكن هو الطغيان.

ثم يقول في البيت الثاني:

لعظمتَ حتَّى لو تكونُ أمانةٌ ما كانَ مؤتمَناً بها جِبرينُ

يقول: إنك عظمت، حتى لو كنت أمانة ما اؤتمن عليها جبريل عليه السلام، وجبريل ينطق: جبرين، وجبريل (بالـلام) وجبرائيل، وله أسماء كثيرة، يعني: في تصاريف الكلمة ألفاظ، فهنا أخطأ غاية الخطأ، فإن الله ائتمن جبريل على الوحي، على الشريعة المقدسة المنزلة من عند الله سبحانه وتعالى على رسوله عليه الصلاة والسلام واصطفاه، وهو أمين على ذلك وأتى بها ولم ينقص حرفاً، فائتمنه سبحانه وتعالى على أعظم شيء وهي رسالة التوحيد والإيمان والشريعة المحمدية الخالصة والله ائتمنه وهو يرسله إلى رسله عليهم الصلاة والسلام فجبريل أمين وهو روح القدس، وهو له مكانة عند ربه، فأخطأ هذا الرجل، إذ يقول: لو كنت يا بدر، أمانة ما كان ائتمن الله جبريل على هذه الأمانة، فأخطأ المتنبي وأسرف وأساء وتعدى والله الموعد.

ويقول في قصيدة له أخرى في بدر:

ما يرتجَى أحدٌ لمكرمةٍ إلا الإلـهُ وأنتَ يا بدرُ

فأتى بالواو المشركة، فالله وحده سبحانه وتعالى هو المرتجى «**وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله**» فلا يملك الضر ولا النفع ولا أن يصل

ولا يقطع ولا يحيي ولا يميت ولا يعافي ولا يشافي إلا هو وحده سبحانه، وانظر إلى الجموح، حين يقول: (وأنت يا بدر) الله وأنت، حتى قال ﷺ وقد سمع رجلاً يقول ما شاء الله وشئت قال: «**ويحك ويلك أجعلتني لله نداً، بل: ما شاء الله وحده**» فلا يؤتى بالواو المشركة بين الخالق سبحانه القوي، الغني، الماجد، الواجد، الأحد، الفرد، الصمد، وبين العبد الضعيف المذنب المقصر، لا يجمع بين الخالق والمخلوق بواو، فهذا من خطئه، وإلا فإبداعه وفصاحته في جانب، لكن متى تعلم الشرع هو؟ متى جلس في حلقات العلم وفي مجالس الذكر، وتعلم الحديث والعقيدة والشريعة؟ ما تعلم، هو تعلم البيان، نعم، الشعر والقافية وهو صاحب حكمة وقوي في إيراده، ويستفاد منه في بدائع شوارده وفوائده وقلائده، ولكنا نقف معه إذا طغى على شرع الله وتجاوز ما ينبغي ألا يتجاوز فيه، إذا وصل إلى الخطوط الحمراء أوقفه أهل العلم، وقد ألف بعضهم رسائل في هذه الأبيات وردوا عليه، كابن الجوزي وحتى ابن القيم لمح له، وابن كثير في البداية والنهاية، ومنهم من أفرد رسائل يعالج شعره؛ لأنه شغل الناس في حكمته وفي مديحه وفي طغيانه وعدوانه وفي تجاوزه اللفظي وفي تشبيهاته، وفي مشكلاته، هو رجل مثير، ثم قال:

أمَا وحقِّك وهوَ غايةُ مقسمٍ ... للحقُّ أنتَ وما سُواكَ الباطِلُ

انظر يقسم بحقه ولا يجوز القسم إلا بالله سبحانه وتعالى أو بصفة من صفاته جل في علاه، أو بكلامه، فيقول هنا: (وحقك) وهذا أقسم بغير الله سبحانه وتعالى، ثم انظر التجاوز يقول: (وهو غاية مقسم) إذا أقسمنا بك، وأخطأ فالغاية: القسم بالله، وتالله، وايم الله، ووالله، فلا يقسم إلا بالله وهو غاية القسم حتى الجاهلي النابغة الذبياني كان أعقل منه مع العلم أنه في الجاهلية وهذا في الإسلام، المتنبي في آخر القرن الثالث وأول الرابع، والنابغة الذبياني قبل مبعث الرسول ﷺ؛ ولذلك تجد النابغة يقول:

حلفتُ فلم أترُكْ لنفسِك ريبةً ... وليسَ وراءَ اللهِ للمرءِ مذهَبُ

يقول: والله إني حلفت لك بالله وليس وراء الله مقصد آخر، لا أعظم من الله ولا أكبر من الله، يقول النابغة الذبياني لكي يعتذر منه، فانظر إلى هذا وهو في الإسلام يقول:

أمَا وحقِّك وهوَ غايةُ مقسمٍ — للحقُّ أنتَ وما سواكَ الباطلُ

وهذا خطأ، بل الحق هو الله وحده سبحانه، وكذلك قوله حق، ونبيه حق عليه الصلاة والسلام، والأنبياء حق عليهم السلام، واليوم الآخر، والقرآن والجنة والنار، فانظر إليه يقول: سوى هذا الممدوح باطل وهذا تجاوز، ثم جاء إلى سيف الدولة علي بن عبد الله بن حمدان، فقال:

لحبُّ ابنِ عبدِ اللهِ أولَى فإنّه — به يبدأُ الذكرُ الجميلُ ويختمُ

يقول: حبك أولى يا سيف الدولة، فإنا نبدأ بك الكلام ونختم بك في الحديث، فأنت يبدأ به، وقد أخطأ وزل وسقطت به قدمه، كيف يكون سيف الدولة يبدأ به الكلام؟! بل يبدأ باسم الله سبحانه وتعالى، بسم الله الرحمن الرحيم، «وكل أمر لا يبدأ فيه باسم الله فهو أجذم» فبالله يبتدأ الكلام ويختتم، وبالصلاة والسلام على رسوله عليه الصلاة والسلام، قال: يبدأ الذكر الجميل ويختم بذكرك أيها الأمير، فقبل أن يخلق سيف الدولة وبعدما مات، كل الذكر يبدأ بالواحد الأحد فهو البداية سبحانه وتعالى، وابدأ بما بدأ الله به سبحانه وتعالى مثل البسملة، وذكره سبحانه وتعالى الحمدلة، الحمد لله رب العالمين، والصلاة على سيد المرسلين ﷺ، ولكن هذا من تجاوزه.

ويقول له في القصيدة نفسها:

فلا موتٌ إلاّ مِنْ سنانِك يُتقَى — ولا رزقٌ إلا مِنْ يمينِك يُقسَمُ

يقــول: الموت ما يأتي إلا من سنانــك من رمحك، ولا يتقى إلا منه، والرزق لا يأتي إلا من يمينك.

أخطــأ وكذب، بل الرزق يأتي من عنــد الواحد الأحد، فهو الذي رزق الخليقة قبل أن يخلق هذا وأمثاله، قبل أن يخلق الممدوح سيف الدولة والله رزق الكائنات فــي البــر والبحــر والجــن والإنــس: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود:٦] وأيضاً الموت كتبه سبحانه وتعالى على العالم من قبل أن يخلق هذا، فالله الــذي قدر المــوت والحياة، وهو الذي خلــق الموت والحياة سبحانــه وتعالى، وهو الرازق وحده لا إله إلا هو.

والآن نعود إلى المتنبي ونقف معه في بعض تجاوزاته يقول في الممدوح:

الَّـذِي لَيسَ عَنْـه مغنٍ ولا مِنْـ ـه بـديـلٌ ولا لِـمَـا رامَ حـامِ

يقــول: أنــت أيها الممــدوح، لا غنى عنك ولا أحــد يغنينا عنــك، والله سبحانه وتعالى هو الذي يغني، وهو الذي أغنى وأقنى، لكنه تجاوز؛ ليريد مالاً مقطوعاً، مالاً قليلاً منتهيــاً زائلاً من هذه الدنيا المزخرفة المنتهيــة الزائلة الغدارة الغرارة، ولو كان عنده علم راسخ، وفهم وعمل صالح وورع لما كان تجاوز؛ فمن الذي يرزق من في السمــوات ومن في الأرض إلا الله، وتكفل بــأرزاق الخلائق إلا هو جل في علاه، قال: (ولا مِنّه بديلٌ) يقول: ما لنا عنك بديل، إذاً فمن الذي ينصر ويكفي ويشفي ويعافي، بــل الله سبحانــه وتعالى يغني عن الجميع، حتى يقول أحــد الصالحين: إذا كان الله معــك فمــن تخاف، وإذا كان الله ضــدك فمن ترجو؟ ويقول: مــن وجد الله وجد كل شــيء، ومــن فقد الله فقد كل شيء، فالغنــى معه سبحانه والعــز والمكانة والمغفرة والشــرف، لكن انظر إليه يذهب إلى بشر مذنب مخطئ مقصر ويتجاوز في حده في المديــح، ويقــول: (ولا لِمَا رامَ حامِ): إذا قصد شيئاً فلا يحميه حامٍ، هو إذا أراد أن ينتقم لا يمنعه مانع، وهذا كله لله سبحانه وتعالى وإنما تجاوز بلا شك.

وفي قصيدة أخرى يقول:

لا تعذلِ المُشتاقَ فِي أشواقِه حتَّى يكونَ حشاكَ فِي أحشائِه

وهو من أجمل الأبيات، لكنه في القصيدة نفسها يقول في أولها:

فومَنْ أحبَّ لأعصينَّك فِي الهوَى قَسَماً بِهِ وبحُسْنِه وبهائِه

يقول هو: أقسم بحب من أحب؛ بمحبوبته إني أعصيك يا لائمي في الهوى، فلا أسمع للومك، قسماً بمحبوبي وقسماً بحسنه وقسماً ببهائه، وقد أخطأ وتجاوز الحق والحد، والقسم بغير الله شرك، وعند أهل العلم من أهل السنة أنه شرك أصغر، فلا يجوز القسم إلا بالله سبحانه وتعالى.

«**إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم**» وفي حديث صحيح قال عمر: «**فما حلفت بغير الله أو بآبائي ذاكراً أو آثاراً**» فلا يجوز أن يحلف الإنسان لا بالشمس ولا بالقمر ولا بالسماء ولا بالإنسان، إنما يقسم بالله العظيم وحده سبحانه وتعالى، وويل لمن أقسم بغير الواحد الأحد، فالقسم تعظيم، ولا يليق إلا بالله سبحانه وتعالى، لكنه لجهله بالشريعة قال هذا.

وسبحان الله! بعض الناس يصرف عمره - انظر لهذا النابغة العبقري المتنبي - كله ستة وأربعون أو ثمانية وأربعون، صرفه كله في القافية ومطاردة الدنيا، يريد شهرة ويريد ظهوراً ويريد جاهاً دنيوياً منتهياً، ما تعلم من العلم شيئاً، حتى لا يعرف الحديث الصحيح ولا الضعيف، ولا درس الروايات ولا شيئاً من الفقه، وحتى لو تسأله في نواقض الوضوء لما أجاب، فعبقريته ذهبت وجنحت، حتى يطغى في ألفاظ الشرع.

ويقول في مرض سيف الدولة:

وكيفَ تعلُّكَ الدُّنْيا بشَيءٍ وأنتَ لعلَّةِ الدُّنْيا طبِيبُ

يقول: كيف تمرضك الدنيا، وأنت الطبيب لكل علة في الدنيا؟ والطبيب حقيقة هو الله؛ كما قيل لأبي بكر وهو مريض: «ألا ندعو لك طبيباً، قال: الطبيب قد رآني، قالوا: ماذا قال لك؟ قال: قال: إني فعال لما أريد» ولذلك قال بعض الصالحين:

كيفَ أشكُو إلى طبيبِي ما بِي ... والذِي قدْ أصابنِي منْ طبيبِي

فهذا لا يطلق، إنه وصف لله ﷻ، ليس من أسمائه، لكن من أفعاله سبحانه وتعالى إنه يداوي وإنه يعالج، وهو يقول هنا: (**وكيف تعلك الدنيا بشيء**) الدنيا لا تستطيع أن تمرضك؛ لأنك أنت الطبيب العالم الذي تعالج من كل علة من الدنيا، وهذا هو التجاوز، حتى إن ابن سينا كان يعالج من مرض القولون، ابن سينا الطبيب المشهور أبو علي هذا الرئيس، كان داهية من دهاة الناس ومن أذكيائهم، لكن على غبش في تصوره في بعض المسائل، وقد رد عليه الغزالي وغيره من العلماء، فهنا يقول ابن سينا لعجبه بنفسه: أنا لو مرض الجن بالقولونج لعالجتهم، كان يعالج الملوك من مرض القولون، فابتلاه الله بمرض القولون- نفس الطبيب أبي علي- فراح يتناول العلاج والعقاقير والأدوية وأخذ يتقلب ظهراً لبطن ويميناً ليسار ويصيح صياحاً، قالوا: فأين طبك وعلاجك ودواؤك؟ قال: الطبيب الأعظم أمرض الطبيب الأصغر، فمات.

فالواحد الأحد هو الذي يشفي ويعافي هو سبحانه وتعالى، وكما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء:٨٠] فلا يشفي إلا الله سبحانه وتعالى، «**لا شفاء إلا شفاؤك**» كما صح عن معلم الخير عليه الصلاة والسلام.

ثم يقول في أبيات أخرى للممدوح:

تظلُّ ملوكُ الأرضِ خاشِعةً لَه ... تفارِقُه هلكَى وتلقَاه سُجَّدا

يقول: إنها تخشع لك الملوك، ولا يخشع الناس إلا للواحد الأحد سبحانه

وتعالى، ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه:١١١]، ويقول: إنها تفارقك هلكى، أنت تقاتلها فتهلك فيها هلاكاً، وإذا لقيتك سجدت لك، والسجود لا يكون إلا لله وحده، ففي حديث يقول عليه الصلاة والسلام، حديث حسن: «**لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها**» لعظم حقه عليها، ونهي الناس أن يسجدوا إلا لله وحده سبحانه، حتى إن المتنبي من تجاوزه في ألفاظه يقول:

أبدُو فيسجدُ مَنْ بالسوءِ يذكرُني ... فلا أعاتِبُه صَفْحاً وإهوَانا

يقول: إذا رآني الناس الحساد سجدوا، وهم لا يسجدون حقيقة، ولا سجد له أحد، لكنه الطغيان اللفظي وجموح النفس، وحب الصدارة الدنيوية، والشهرة في الأرض المنقطعة، ولذلك أين ذهب؟ حياته الآن منتهية، مات الزاهد ومات العابد والمتكبر والفقير، مثلما يقول الكاتب الأمريكي إستيفون كوفي: إني زرت المقبرة فوجدت قبر رئيس الجمهورية بجانب قبر العامل البسيط، ولاعب الكرة المشهور بقبر الخامل. فتعجبت من هذه المسرحية التي تسمى الدنيا، فأين ذهب الآن؟ هو يحاسب بألفاظه عند الواحد الأحد، لماذا قلت كذا؟ ولماذا تجاوزت؟ ولماذا تعديت؟

ثم يعود إلى تجاوزات أخرى في بعض الأبيات، فيقول لابن العميد:

عربيٌّ لسانُه فلسفيٌّ ... رأيُه فارسيَّةٌ أعيادُه

قيل: إن القصيدة في ابن العميد، وقال بعض الشراح: بل هي في عضد الدولة فنخصرو، وابن العميد الكاتب قد مدحه المتنبي بقصائد، ومنها:

بادِ هواكَ صبرْتَ أم لَمْ تصبِرا ... وبكاكَ إذْ لم يجْرِ دمعُك أو جرَى

إلى أن يقول في القصيدة:

مَنْ مخبرُ الأعْرَابَ أنّي بعدَهم ... جالستُ جالينوسَ والأسْكندَرا

وقرأتُ بطليموسَ دارسَ كتبِه ... متبدّياً متعلّماً متحضّرا

قطفَ الرجالُ القولَ قبلَ نباتِه ... وقطفتَ أنتَ القولَ لمّا نوّرا

فلو أنه استمر على هذا الإبداع وهذه الفصاحة والعبقرية لكنا سكتنا عنه وسكت عنه علماء الشريعة، لكنه يتجاوز، ولذلك لما ذهب لعضد الدولة يقول:

مغاني الشِّعْبِ طيباً فِي المغانِي ... بمنزلةِ الربيعِ منَ الزّمانِ

ولكنَّ الفتَى العربيَّ فِيها ... غريبُ الوجهِ واليدِ واللسانِ

فما يُسمَى كفِنْخصرُو مسمًى ... ولا يكنَى كفنخصْرُو كَانِ

وعضد الدولة اسمه فنخصرو، فهنا يقول: عربي لسانه، يقول: فصيح على اللغة العربية، فلسفي رأيه؛ لأنهم يعجبون بالفلسفة من عهد المأمون مثلما يعجب بها بعض المثقفين الآن ولو ما في رأسه حبة ولا كلمة ولا فائدة ولا شيء، فيريد فقط أن يحبك لك الكلام ويزوقه. يقول أحدهم: إنها تنطلق من أطر وتنبثق في بوتقة، ونلتقي على أرضية مشتركة؛ لنخاطب الأيدولوجية بخطاب مركزي إستراتيجي. وتبحث عنه وإذا هو لا يعرف شيئاً. فالفلاسفة في عهد المأمون كانوا يعجبون بتزويق الألفاظ، حتى يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: إني بحثت عن بضاعتهم فوجدت بضاعة الفلاسفة كلحم جمل غث على رأس جبل لا سهل فيرتقى ولا سمين فينتقل، وهذا جزء من حديث أم زرع الذي في صحيح البخاري وروته عائشة عن الرسول ﷺ: «**فأنا كأبي زرع لك**» عليه الصلاة والسلام.

الشاهد: يقول ابن تيمية: إن الفلاسفة -يعني المنحرفين عن منهج الله- لهم حظ من قوله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر:٣]، وأهل الحديث لهم حظ من قوله سبحانه: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح:٤]، فهم يمدحون بالفلسفة.

ويقول: (فارسية أعياده) والأعياد الفارسية محرمة في الإسلام، فإن فيها من التقرب إلى آلهتهم وإلى النار، نار المجوس، وفيها عيد النيروز المخالف لدين الله ﷻ، فيمدحه ويقول: الحمد لله أن أعيادك فارسية، لكنه لا يعرف الحلال والحرام طبعاً، لكنا نقف لننبه الجيل؛ لأنه قد يقرأ ديوانه أحد الإخوة فيغتر ويقول: لعل الأعياد الفارسية جميلة وما دام المتنبي زكاها فإن لها أهمية، فنقول: المتنبي ليس بعالم شريعة، ولا يفتي في هذه المسائل.

ثم يقول:

لنَا مذهبُ العبَّادِ في تركِ غيرِه ... وإتيانُه نبغي الرغائبَ بالزهدِ

رَجَونا الذي يرجونَ في كلِّ جنةٍ ... بأرجانَ حتَّى ما يَئِسنا مِنَ الخلدِ

يقول: إننا نذهب مذهب الزهاد الذين تركوا الدنيا ومالوا إلى ما عند الله ﷻ، فنحن مثل الزهاد لكننا تركنا كل الدنيا وملنا إلى هذا الرجل الملك الذي قصدناه، قيل: إنه يقصد عضد الدولة وقيل: بل ابن العميد، لكنني أرجح عضد الدولة.

(رجونا الذي يرجون في كل جنة) يعني: نحن نرجو من هذا الملك مثلما يرجو الزهاد والعباد في الجنة، نحن نرجو من هذا ونطلب من هذا ونطمع من عند هذا وما عنده ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل:٩٦] عنده الفقر والله، كل الذي فوق التراب تراب، حتى هو قال في أبياته التي فيها:

أعزُّ مكانٍ في الدُّنا سرجُ سابحٍ ... وخيرُ جليسٍ في الزَّمانِ كتابُ

يقول لسيف الدولة:

فليتَك تحلُو والحياةُ مريرةٌ ... وليتك ترضى والأنام غضاب

إذا صحَّ منكَ الودُّ فالكلُّ هيِّنٌ ... وكلُّ الذي فوقَ التُرابِ ترابُ

الزعمـاء، الأغنياء، الأثرياء، العلماء، المفكـرون، التجار، تراب يمشي على تـراب، ثم يتحـول التراب إلى تـراب، ثم يدخل التـراب إلى أصله تراباً، ويبقى الواحد الأحد ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص:٨٨].

يقول: نحن نرجوك مثلما يرجون زهاد الدنيا، كم يساوي العمر هذا؟ أن تذهب عقيدتك وشريعتك ودينك وإيمانك من أجل الدنيا، ثم لو أعطاك كنوز الدنيا.

وأرجان: بلد.

يقول: (**حتى ما يئسنا من الخلد**) يقول: لما دخلنا أرجان هذه نريد أن نخلد فيهـا مثلما يريد أهل الجنة أن يخلدوا في الجنـة، وهو يقول في أرجان هذه وكان وادي شعب بوان في الشمال جميلاً وأخضر يقول:

مَلاعِبُ جِنَّةٍ لو سَارَ فِيها سُليمانُ لسَارَ بِتَرجُمانِ

وهذا من أبياته الخاطئة يقول: لو كان سليمان موجوداً وهو الذي يكلم الطير والوحش لما استطاع، ولاحتاج إلى من يترجم له، مع العلم أن الله سبحانه وتعالى يقـول على لسانه: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ [النمل:١٦]، كان سليمان عليه السلام يكلم الحمامة، يكلـم النملة، يكلم القمري، تأتي الغزال توقفه وتكلمه ويكلمها، سبحان الذي أعطاه هذا الملك يقول: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ [ص:٣٥]، ولذلك لا يفرح بالملك بعده، أين سليمان؟ أين قصوره؟ أين الإنس؟ أين الجـن؟ أين تلـك المملكة التي عبرت فـي التاريخ أكبر مملكة فـي الدنيا؟ ولذلك أخطأ المتنبي وتجاوز حين يقول:

مَلاعِبُ جِنَّةٍ لو سَارَ فِيها سُليمانُ لسَارَ بِتَرجُمانِ

يقول: الجن يتلاعبون فـي هذه الغابة من سوادها ومن شجرها ومن التفاف حدائقهـا، حتى إن فيها من الحيوانات والطيور، لدرجة أن سليمان يحتاج إلى من يترجم له. وهذا خطأ؛ فسليمان عليه السلام لا يحتاج إلى من يترجم له؛ لأن الله علمه منطق الطير. نسأل الله أن يحفظ ألسنتنا من الزلل وقلوبنا من الرياء.

obeikandl.com

عمر الفتى الثاني

يقول أبو الطيب المتنبي:

ذِكْرُ الْفَتَى عُمْرُهُ الثَّانِي وَحَاجَتُهُ

مَا قَاتَهُ وَفُضُولُ الْعَيْشِ أَشْغَالُ

وهذا أتى به في قصيدته البديعة التي يقول في مطلعها:

لا خَيْلَ عِنْدَكَ تُهْدِيهَا وَلا مَالُ

فَلْيُسْعِدِ النُّطْقُ إِذْ لَمْ تُسْعِدِ الْحَالُ

وفيها:

اسْتَوْجَبَ الْحَمْدُ حَتى مَا لِمُفْتَخِرٍ

فِي الْحَمْدِ حَاءٌ وَلا مِيمٌ وَدَالُ

ثم ختمها بتلك الأبيات الشائقة الرائقة البديعة التي يقول فيها:

لَوْلا الْمَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كُلُّهُمُ ... الْجُودُ يُفْقِرُ وَالإِقْدَامُ قَتَّالُ

وقبلها:

لا يُدْرِكُ الْمَجْدَ إِلاَّ سَيِّدٌ فَطِنٌ ... لِمَا يَشِقُّ عَلَى السَّادَاتِ فَعَّالُ

ومن ضمن القصيدة:

ذِكْرُ الْفَتَى عُمْرُهُ الثَّانِي وَحَاجَتُهُ ... مَا قَاتَهُ وَفُضُولُ الْعَيْشِ أَشْغَالُ

ومعنى البيت أن الذكر الحسن للإنسان بعد موته عُمْر ثانٍ يُضاف إلى عمره الأول، وحاجة الإنسان ما قاته، أي: إن الإنسان يكفيه في الحياة القوت؛ فإن القوت يقوم بأمورك ويكفيك إذا كنت من المقتصدين الذين يفهمون تبسيط الحياة ويفهمون القناعة ويريدون العيشة الساكنة الهنيئة.

وفضول العيش أشغال: أكثر الأمور التي يتزود بها الناس ويسمونها الرفاهية أو الزيادة على الحاجة، إنما هي أشغال تُشغل الذهن ولا معنى لها كما يقول أبو العتاهية، إذ يرى السعادة في الكفاف ويرى أنها في الهدوء، ولذلك يقول:

رَغِيفُ خُبْزٍ يَابِسٍ ... تَأْكُلُهُ فِي زَاوِيَهْ

وَكُوزُ مَاءٍ بَارِدٍ ... تَشْرَبُهُ مِنْ صَافِيَهْ

وَمِصْحَفٌ تَدْرُسُهُ ... مُسْتَنِداً لِسَارِيَهْ

خَيْرٌ مِنَ السُّكْنَى بِظِلِّ ... لأَتِ الْقُصُورِ الْعَالِيَهْ

أي: مع المعصية والمخالفة.

مِنْ بَعْدِ هَذَا كُلِّهِ ... تُصْلَى بِنَارٍ حَامِيَهْ

فهو هنا يدعوك إلى أن تحسن من سيرتك، حتى يكون لك ذكر آخر وسيرة حسنة، كما يقول ابن دريد، حين لخَّص حياة الإنسان إلى أن يُصبح حديثاً بعد

وفاته، ولا يبقى منه شيء في الحياة، من جسمه وبصره وعيونه فلا يبقى إلا حديث، يقول ﷻ: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ [مريم: ٩٨]. وإبراهيم عليه السلام سأل الله ﷻ مسألة وهي من أحسن ما يُسأل: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾ [الشعراء: ٨٤]. قال المفسرون: هو الثناء الحسن. أي: اجعل لي يا رب العالمين، ألسنة تثني عليَّ وتسلم علي وتذكرني بالخير، فما دام أنه «في الليل والنهار وعلى إخوانه المرسلين» فانظر كيف طلب الثناء الحسن للباقي؛ لأن الثناء الحسن هو تاريخ ومجد؛ لأن الناس شهداء الله في أرضه، فإن شهدوا لإنسان من أهل الخير بخير فهو من أهل الخير وإن شهدوا عليه بشر، فهو من أهل الشر والسوء، كما صح عند البخاري وغيره: «**أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مُرَّ عَلَيْهِ بِجَنَازَةٍ فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا خَيْرًا، فَقَالَ: وَجَبَتْ وَجَبَتْ وَجَبَتْ. وَمَرُّوا عَلَيْهِ بِجَنَازَةٍ ثَانِيَةٍ فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا شَرًّا، قَالَ: وَجَبَتْ وَجَبَتْ وَجَبَتْ**». فسئل فقال: «**الأُولَى أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهَا خَيْرًا فَقُلْتُ: وَجَبَتْ لَهَا الْجَنَّةُ. وَالثَّانِيَةُ أَثْنَوْا عَلَيْهَا شَرًّا، فَقُلْتُ: وَجَبَتْ لَهَا النَّارُ؛ أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي أَرْضِهِ**».

ولكن سعى كثير من الناس بجوده وشجاعته؛ حتى يكسب ذكراً، حتى يقول في صحيح مسلم عدي بن حاتم رضي الله عنه: «**يَا رَسُولَ اللهِ: إِنَّ أَبِي كَانَ يُقْرِي الضَّيْفَ وَيُطْعِمُ الْجَائِعَ وَيَحْمِلُ الْكَلَّ وَيُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الدَّهْرِ فَهَلْ يَنْفَعُهُ ذَلِكَ عِنْدَ اللهِ؟ قَالَ ﷺ: إِنَّ أَبَاكَ طَلَبَ شَيْئًا فَأَصَابَهُ**».

فهو طلب الذكر والسمعة في الناس، فأعطاه الله ﷻ، وأما الدليل على أن حاتمًا يريد الصيت والسمعة، لا أنه يفعل هذا الجود يريد الثواب، فقوله:

أَمَاوِيَّ، إِنَّ الْمَالَ غَادٍ وَرَائِحُ ... وَيَبْقَى مِنَ الْمَالِ الْأَحَادِيثُ وَالذِّكْرُ

فهو يريد بجوده أن يُذكر في الناس ويريد أن يتحدث الناس بجوده، فأعطاه الله ما تمنى في الدنيا؛ لأنه طلب وقصد ذلك، وإنما الأعمال بالنيات، فلذلك تجد

أشهر الناس بالكرم حاتم الطائي، يضرب به الناس المثل في الكرم قديماً وحديثاً، فهو طلب هذا الشيء فحصل له، فقال ﷺ: «إِنَّ أَبَاكَ طَلَبَ شَيْئاً فَأَصَابَهُ». وهو المقصود من حاتم في قوله:

أَمَاوِيَّ، إِنَّ الْمَالَ غَادٍ وَرَائِحُ ... وَيَبْقَى مِنَ الْمَالِ الْأَحَادِيثُ وَالذِّكْرُ

فهو يريد الأحاديث والذكر، ولهذا يقول في أبيات عجيبة في الحماسة لأبي تمام:

أَمَا وَالَّذِي لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ غَيْرُهُ ... لَقَدْ كُنْتُ أَطْوِي الْبَطْنَ وَالزَّادُ يُشْتَهَى

وَيُحْيِي الْعِظَامَ الْبِيضَ وَهْيَ رَمِيمُ ... مَخَافَةَ يَوْماً أَنْ يُقَالَ: لَئِيمُ

فطلب شيئاً فحصل عليه، والله عز وجل يجزي في الآخرة من أراد وجهه ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هود: ١٥]. لكن من أراد ما عند الله جمع الله له بين الثناء الحسن والأجر العظيم عنده عز وجل.

وابن بقية الوزير لما قُتِل ورثاه أبو الحسن الأنباري؛ قُتِل وصلِبَ في بغداد وسُمِّرَت يداه فقيل فيه قصيدة باقية لا تُنسى أبداً، وهي من أجل المراثي، يقول أبو الحسن الأنباري فيه:

عُلُوٌّ فِي الْحَيَاةِ وَفِي الْمَمَاتِ ... لَحَقٌّ أَنْتَ إِحْدَى الْمُعْجِزَاتِ

كَأَنَّ النَّاسَ حَوْلَكَ حِينَ قَامُوا ... وُفُودُ نَدَاكَ أَيَّامَ الصِّلَاتِ

كَأَنَّكَ وَاقِفٌ فِيهِمْ خَطِيباً ... وَهُمْ وَقَفُوا قِيَاماً لِلصَّلَاةِ

مَدَدْتَ يَدَيْكَ نَحْوَهُمُ احْتِفَاءً ... كَمَدِّهِمُ إِلَيْهِمْ بِالْهِبَاتِ

إلى آخر ما قال. فهي من أجل الثناء الحسن الذي يؤرَّخ.

وأحد الشعراء مر بقبر سلْم بن سعيد بن قتيبة بن مسلم- جَدُّه قتيبة بن مسلم، وكان كريماً جواداً- وقد أحسن إليه في الحياة الدنيا، فأراد أن ينصفه، فقال:

مَضَى ابْنُ سَعِيدٍ حِينَ لَمْ يَبْقَ مَشْرِقٌ ... وَلا مَغْرِبٌ إِلاَّ وَلَهُ فِيهِ مَادِحُ
وَمَا كُنْتُ أَدْرِي مَا فَوَاضِلُ كَفِّهِ ... عَلَى النَّاسِ حَتَّى غَيَّبَتْهُ الصَّحَائِحُ
وَأَصْبَحَ فِي لَحْدٍ مِنَ الأَرْضِ ضَيِّقٍ ... وَكَانَ بِهِ حَيّاً تَضِيقُ الصَّفَائِحُ
سَأَبْكِيكَ مَا فَاضَتْ دُمُوعِي فَإِنْ تَغِضْ ... فَحَسْبُكَ مِنِّي مَا تَجِنُّ الْجَوَانِحُ
فَمَا أَنَا مِنْ رُزْءٍ- وَإِنْ جَلَّ- جَازِعٌ ... وَلا بِسُرُورٍ بَعْدَ مَوْتِكَ فَارِحُ
فَإِنْ حَسُنَتْ فِيكَ الْمَرَاثِي وَذِكْرُهَا ... لَقَدْ حَسُنَتْ مِنْ قَبْلُ فِيكَ الْمَدَائِحُ

إن من أراد الثناء الحسن والمدح الجميل فعليه أن يفعل فعلاً جميلاً، ولا يقصد مدح الناس، إنما يقصد رب الناس ويقصد الثواب من الله فيؤتيه الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ويسوق له الثناء الحسن ويجعل له ذكراً جميلاً ومكانة وقبولاً، أما من يطلب الدنيا فلا يحصل له الثواب وقد يحصل له الذكر المنقطع في الدنيا، كما حصل لحاتم ونحوه، وبالمناسبة فإن عبد الله بن جدعان كانت له جفنة كبيرة يُطعم فيها يحملها أربعة من العمال فيملؤها بُراً وعسلاً وتمراً، أتى ﷺ وهو شاب وأبو جهل معه يتسابقون إلى هذه المأدبة، فزاحم أبو جهل الرسول ﷺ وكان سنهما متقارباً - أكرم الله الرسول محمداً ﷺ - فازدحما فتصارعا أمام الناس، فطرح رسول الله ﷺ أبا جهل وطرحه على ركبته ووطَّاه أرضاً، فلما جاء أبو جهل في بدر قُطِع رأسه فاختلفوا في جثته، إذ أصبح بلا رأس، فقال ﷺ: «**الْتَمِسُوا فَإِنَّ فِي رُكْبَتِهِ آثَارَ جَرْحٍ قَدْ صَرَعْتُهُ عَلَى مَائِدَةِ عَبْدِ اللهِ بْنِ جُدْعَانَ وَنَحْنُ شَبَابٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ**». فكشفوا الثوب فوجدوا آثار الجرح الكبير أسفل من آثار الشباب، فوجدوا جثته فساقوه وسحبوه كالعيْرِ، حتى أنزلوه في بئر بدر في القليب، فهذه من قصة عبد الله بن جدعان التي حضرها سيد الخلق ﷺ، فكانت مأدبة عبد الله بن جدعان التي كان حضورها مع من حضر أشرف خلق الله ﷺ، ولكنه كانت لطلب المديح الدنيوي، فالذكر الحسن هو ملك بلا شك وهو حياة كما يقول أبو الطيب:

ذِكْرُ الْفَتَى عُمْرُهُ الثَّانِي وَحَاجَتُهُ مَا قَاتَهُ وَفُضُولُ الْعَيْشِ أَشْغَالُ

وبإمكانك أن تعلق هذا البيت الحكمة فائدة لك توظفه في سمعة حسنة، وفي قناعة وفي اكتفاء برزق حلال طيب يكفيك.

وعلى ذكر هذا الثناء الذي يشير إليه أبو الطيب المتنبي يرى الحكماء والعلماء أن المال ينتهي وأن المال يبقى، وأن أعراض الدنيا تفنى وأن السيرة الحميدة هي الباقية، ولذلك كم من مسؤول ومن وزير عُزِلَ وما عُزِلَت فضائله، بل بقيت في الناس تذهب وتأتي، وكم من إنسان يتولى من مسؤول ووزير ونحوه وهو على رأس منصبه وليس له ذكر حسن ولا سيرة عطرة، إذاً تعود المسألة إلى مسألة الذكر الجميل والسيرة الحسنة، فلا يكتب تاريخ الإنسان إلا هو، وإن تاريخاً يكتبه غيرك عنك تاريخ مغلوط، يقول برناردشو: إذا رأيت مؤرخاً يكتب عن إنسان فاعرف أن الحقيقة غائبة. لأنه لا يعرف إلا أنت، ولن يتصدق عليك أحد بعد موتك بمحاسن، فالناس والمؤرخون لا يجعلون البخيل جواداً ولا الجبان شجاعاً ولا الفاجر عابداً، فأنت في حياتك هذه العابرة المنصرمة القصيرة، عليك أن تبني مجداً من البر والإيمان والخلق والتواضع والإحسان، فتجده عند الله ﷻ.

كان عمر رضي الله عنه جالساً فأتى أبناء هرم بن سنان- وهرم بن سنان من مشايخ غطفان- وقد تُوُفِّي أبوهم، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «**مَاذَا قَالَ فِيكُمْ حَسَّانُ رضي الله عنه وَمَاذَا أَعْطَيْتُمُوهُ؟**». قالوا: مدحنا وأعطيناه. أي: مدح آباءنا. وزهير بن أبي سلمى كان شاعراً وكان يقول: لن أُسَلِّم على هرم؛ لأنني كلما سلمت عليه وقلت: عم صباحاً؛ أقسم هرم أن يعطيني جائزة، فخجلت من كثرة العطاء. فكان يقول: عِمُوا صَبَاحَاً إِلَّا هَرِم وَخَيْرُكُمُ مَن اسْتَثْنَيْتُ.

يقول: إلا هرم؛ لأنه كلما صبَّح عليه زهير يعطيه جائزة أو هدية، فاستحيا من كثرة الهدايا. فعموا صباحاً: هذه تحية الجاهلية قبل الإسلام تحية أهل الظلام والشرك، ولذلك يقول امرؤ القيس:

أَلا عِمْ صَبَاحاً أَيُّهَا الطَّلَلُ الْبَالِي وَهَـلْ يَعِمَـنْ إِلاَّ سَعِيدٌ مُنَعَّمٌ
وَهَلْ يَعِمَنْ مَنْ كَانَ فِي الرَّبْعِ الْخَالِي قَلِيلُ الْهُمُومِ لا يَبِيتُ بِأَوْجَالِ

وهي اللامية، وليست هي من المعلقات، لكن بعض العلماء يقدمها على المعلقة؛ لأن فيها حكماً وفيها لموعاً أكثر وسطوعاً، والمعلقة مطلعها:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ بِسَقْطِ اللِوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

الشاهد قال عمر رضي الله عنه: «مَاذَا قَالَ فِيكُمْ حَسَّانٌ رضي الله عنه وَمَاذَا أَعْطَيْتُمُوهُ؟». قالوا: مدحنا وأعطيناه. قال عمر رضي الله عنه: «ذَهَبَ - وَاللهِ - مَا أَعْطَيْتُمُوهُ وَبَقِيَ مَا أَعْطَاكُمْ». فإن ما أعطوه من فضة أو ذهب أو ثياب أو طعام انتهى وبقي الثناء الحسن، فنحن الآن نحفظ كلام زهير في هرم، حتى يقول:

قَوْمٌ أَبُوهُمْ سِنَانٌ حِينَ تَنْسُبُهُمْ طَابُوا وَطَابَ مِنَ الأَوْلادِ مَا وَلَدُوا
لَوْ كَانَ يَقْعُدُ فَوْقَ الشَّمْسِ مِنْ كَرَمٍ قَوْمٌ بِآبَائِهِمْ أَوْ مَجْدِهِمْ قَعَدُوا
مُحَسَّدُونَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ نِعَمٍ لا يَنْزَعُ اللهُ مِنْهُمْ مَا لَهُ حُسِدُوا

أبوهم سنان، أي: أبو هرم. محسَّدون: محسودون من الناس. وفي الحسود يقول أبو تمام:

اعْذُرْ حَسُودَكَ فِيمَا قَدْ خُصِصْتَ بِهِ إِنَّ الْعُلا حَسَنٌ فِي مِثْلِ مَا حَسَدُوا

يقول: ما أحسن الحسد عليك؛ لأنك عندك نعمة!

ابن الوزير محمد بن إبراهيم صاحب (العواصم والقواصم) أعلم علماء اليمن على الإطلاق، حتى يقول الشوكاني: لو جُمِعَ علماء اليمن في ذاتٍ واحدة ما أتوا مثل ابن الوزير، وكتابه (العواصم والقواصم) طُبِع في تسعة مجلدات، وليس المقصود

كتاب (العواصم والقواسم) كتاب العربي الأندلسي، هذا لمحمد بن إبراهيم الوزير العلامة المجتهد النظار المحدث المفسر الفقيه، وهو في القرن الثامن، وشكا من ظلم حساده لما لمع وبسط -كما يقول أحد الكتاب: إذا رأيت الحساد ينالونك، وسهام النقد تتوجه إليك والناس يرمونك بالطوب فاعلم أنك قد وصلت إلى بلاط المجد وأن مدفعية الشرف أخذت تطلق إحدى وعشرين طلقة لاستقبالك. فهذا محمد بن الوزير شكا من ظلم حسّاده، يقول أحد العلماء وكتب له فقال:

وَشَكَوْتَ مِنْ ظُلْمِ الْوُشَاةِ وَلَمْ تَجِدْ ... ما زِلْتَ يا سِبْطَ الْكِرَامِ، مُحَسَّدَاً

ذَا سُؤْدُدٍ إِلاَّ أُصِيبَ بِحُسَّدِ ... وَالثَّافِهُ الْمِسْكِينُ غَيْرُ مُحَسَّدِ

من يحسد المسكين الجالس على الأرض؟ لا يسقط الضعيف الهزيل الفاشل، ومن يتمنى أنه مكانه؟ إنه يمر صفراً وهل للصفر قيمة؟! ولذلك يقول زهير:

مُحَسَّنُونَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ نِعَمٍ ... لا يَنْزَعُ اللهُ مِنْهُمْ ما له حُسِنُوا

الله يبقي هذه النعمة التي سببت الحسد لهم؛ لأن كل ذي نعمة محسود، فما دامت هذه النعمة تسوق لهم الحسد، فأسأل الله ألا ينزع عنهم هذه النعمة، حتى يقول الأسطورة أبو الطيب المتنبي:

إِنِّي وَإِنْ لُمْتُ حَاسِدِيَّ فَما ... أُنْكِرُ أَنِّي عُقُوبَةٌ لَهُمُ

انظر إلى هذه القوة والعصف والقصف يكسر الرؤوس، فيقول: الله أرسلني عقوبة لهم، الله ابتلاهم بي، الله أحرق أكبادهم وكسّر أضلاعهم بي، أنا عقوبة. ويقول:

سِوَى وَجَعِ الْحُسَّادِ دَاوِ فَإِنَّهُ ... إِذَا حَلَّ فِي قَلْبٍ فَلَيْسَ يَحُولُ

وَلا تَطْمَعَنْ مِنْ حَاسِدٍ فِي مَوَدَّةٍ ... وَإِنْ كُنْتَ تُبْدِيهَا لَهُ وَتُنِيلُ

كان يضطرم ويتوجع ويحترق، لكن يثور ويقول: ما عندي بأس، لست متأثراً، أنا صامد. لا بد أن يُلتفت له ولا بد أن يكون هو الرقم الأول، فيقول:

أَبْدُو فَيَسْجُدُ مَنْ بِالسُّوءِ يَذْكُرُنِي.

حتى يقول ابن الفارض:

وَإِذَا الْحُسْنُ بَدَا فَاسْجُدْ لَهُ.

ولا يُسجد إلا لله وحده ﷻ ولكنها تجاوزات الشعراء.

فَسُجُودُ الشُّكْرِ فَرْضٌ يَا أُخَيْ.

حتى إن نزار قباني يقول في دمشق:

الْحُبُّ يَبْدَأُ مِنْ دِمَشْقَ فَأَهْلُهَا ... عَبَدُوا الْجَمَالَ وَذَوَّبُوهُ وَذَابُوا

ولا يُعبد إلا الله ﷻ، قصيدة جميلة بائية يقول فيها:

الْمَاءُ يَبْدَأُ مِنْ دِمَشْقَ فَأَيْنَمَا ... أَسْنَدْتَ رَأْسَكَ جَدْوَلٌ يَنْسَابُ

الشاهد قوله:

أَبْدُو فَيَسْجُدُ مَنْ بِالسُّوءِ يَذْكُرُنِي ... فَلا أُعَاتِبُهُ صَفْحاً وَإِهْوَانَا

كَذَاكَ قَدْ كُنْتُ فِي أَهْلِي وَفِي وَطَنِي ... إِنَّ النَّفِيسَ غَرِيبٌ حَيْثُمَا كَانَا

مُحَسَّدُ الْفَضْلِ مَكْذُوبٌ عَلَى أَثَرِي ... أُغْتَابُ سِرّاً وَيُثْنَى فِيَّ إِعْلانَا

الثناء الحسن من ألسنة المؤمنين؛ لأن ألسنة الخلق أقلام الحق، فمن شهد له المؤمنون بأنه خَيِّر فهو خَيِّر ومن شهدوا عليه بسوء فهو سيئ.

أتى رجل يثني على أمير المؤمنين علي ﷺ يبالغ وهو لا يحب علياً ﷺ لكن أتى يبالغ، فقال ﷺ: «**أَنَا دُونَ مَا تَقُولُ وَفَوْقَ مَا فِي نَفْسِكَ**». أي: أنت في

نفسك لا تراني في المنزلة الرفيعة وبالغت في القول. قال: ما لِلناس اجتمعوا على أبـي بكر وعمر ولم يجتمعوا عليك؟ قـال: «**لأنَّ رَعِيَّةَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ «أَنَا وَأَمْثَالِي وَرَعِيَّتِي أَنْتَ وَأَمْثَالُكَ**». وهذا من الجوابات الساطعـة، فلا يأتي بهذا الكلام ولا يأتي بهذا الجواب إلا علي رضي الله عنه.

فلله عز وجل الثناء والمجد، فله الثناء كله والشكر أوله وآخره وله الحمد أجمعه، ولذلك مدح نفسه قبل أن يمدحه المادحون وحمد نفسه قبل أن يحمده الحامدون، فهـو جمع المدح كله ويحب الثناء عز وجل حتى نقول في الدعاء: «**أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ لا نُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ**». كما صح عن النبي ﷺ. فالثناء الذي لا نستطيعه هو الثناء الذي أثنى به على نفسه عز وجل، فما أثنى على الله مثل ثنائه عز وجل في نفسه ولذلـك يحمـد عند النعم وعند وقـوع النقم لأعدائه من الأمـم؛ لأنه محمود على المكروه فلا يحمد على المكروه سواه عز وجل، فلما أوقع البأس بأعدائه قال: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥]. لـو كان غيـر الله من البشر لقال: أنزلنا البأس بآل فلان. والله المستعان فهم يلجؤون لهذا، أو يقولون: انتقمنا من آل فلان. وحسبنا الله ونعم الوكيل، لكنه عز وجل قال: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥]. فـإن إيقاعه بهم وعذابه للطغاة وأخـذه للفجـرة والجبابرة عدل منه عز وجل يوجب علينا أن نحمـده، فهو أهل الثناء والمجد جل في علاه ولذلك يحب المدح.

وعنـد مسلم في الصحيح: «**لا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللهِ**». ولذلك مدح نفسـه، وأتـى الأسود بن سريع في مسند أحمد، قـال: «**يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي نَظَمْتُ قَصِيدَةً أُثْنِي بِهَا عَلَى رَبِّي. قَالَ: أَمَا إِنَّ رَبَّكَ يُحِبُّ الْمَدْحَ**». ولذلك فالمتنبي يقول في مخلوق، ولكني أعيدها إلى الله الواحد، الأحد فهو يستحقها:

اسْتَوْجَبَ الْحَمْدَ حَتى مَا لِمُفْتَخِرٍ ... فِي الْحَمْدِ حَاءٌ وَلا مِيمٌ وَدَالُ

وهذا لا يكون إلا لله ﷻ فإن المدح كله والثناء الحسن والشكر لله وحده ﷻ إذ إنه: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾ [النحل: ٥٣]. فهو الذي استوجب منا أن نمدحه ونحمده جل في علاه ولذلك مدح كثير من الشعراء الله ﷻ كقول أبي نواس:

تَأَمَّلْ فِي نَبَاتِ الأَرْضِ وَانْظُرْ ... إِلَى آثَارِ مَا صَنَعَ الْمَلِيكُ

عُيُونٌ مِنْ لُجَيْنٍ شَاخِصَاتٌ ... بِأَحْدَاقٍ هِيَ الذَّهَبُ السَّبِيكُ

عَلَى كُثُبِ الزَّبَرْجَدِ شَاهِدَاتٌ ... بِأَنَّ اللهَ لَيْسَ لَهُ شَرِيكُ

وقلت في قصيدة:

يَا رَبِّ حَمْدَاً لَيْسَ غَيْرُكَ يُحْمَدُ ... يَا مَنْ لَهُ كُلُّ الْخَلائِقِ تَصْمُدُ

أَبْوَابُ كُلِّ مُمَلَّكٍ قَدْ أُوْصِدَتْ ... وَرَأَيْتُ بَابَكَ وَاسِعَاً لا يُوصَدُ

الصَّالِحُونَ بِنُورِ وَجْهِكَ آمَنُوا ... عَافُوا بِحُبِّكَ نَوْمَهُمْ فَتَهَجَّدُوا

ومنهم من مدحه ﷻ فقال:

إِلَيْكَ وَإِلاَّ لا تُشَدُّ الرَّكَائِبُ ... وَمِنْكَ وَإِلاَّ فَالْمُؤَمَّلُ خَائِبُ

وَفِيكَ وَإِلاَّ فَالْغَرَامُ مُضَيَّعٌ ... وَعَنْكَ وَإِلاَّ فَالْمُحَدِّثُ كَاذِبُ

فهو أجل من يُمدح ﷻ ولذلك أوصيكم بكثرة ذكره وتسبيحه ومدحه ﷻ، والثناء عليه في المجامع العامة والخاصة وفي الأذكار وفي كل مناسبة.

وأبو الطيب على بلاغته وفصاحته وعبقريته أسرف في مدح الناس، ولو أثنى على الواحد الأحد الذي يستحق المديح لكفاه؛ لأنه يأتي إلى مخلوق مثله يأكل ويمشي في الأسواق، فيقول:

جَزَى اللهُ الْمَسِيرَ إِلَيْكَ خَيْراً وَإِنْ تَرِد الْمَطَايَا كَالْمَزَادِ

بل جزى الله المسير إلى رب العباد خيراً، وأسأل الله أن يتولانا وإياكم بالخير.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت،
أستغفرك وأتوب إليك.

obeikandl.com